

الفصل الثالث عشر

آداب المرأة المسلمة في القرآن الكريم

البحث الأول:

آداب إسلام الوجه لله تعالى

أختي المؤمنة:

إقامة الوجه لله - أو إسلام الوجه لله - مُخْلَقٌ من أخلاق القرآن الحكيم، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم، وهو مُخْلَقٌ ينهض على أساس التوحيد لله، والإخلاص في طاعته، واللجوء إليه على الدوام، والرجاء منه في كل حال، وعدم الالتفات إلى سواه، وقد تحدث التنزيل المجيد عن هذا المُخْلَقِ في مواطن كثيرة، فمن ذلك قوله في سورة البقرة:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِرَبْوَةٍ إِلَىٰ اللَّهِ لَا تَمُوتُ وَلَا تَحْزَنُ وَلَا تَحْزَنُونَ﴾^(١).

وأسلم هنا معناها: استسلم وخضع وقوض، وأخلص عمله لبارئه، أو كما يُعبر «تفسير المنار»: إسلام الوجه لله هو كمال التوجه إليه وحده، وتخصيصه بالعبادة دون سواه، كما قال في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢).

وقد عبر عن إسلام القلب وصحة القصد إلى الشيء بإسلام الوجه، كما عبر

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٢.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

بتوجيه الوجه، أو إقامة الوجه في مواطن أخرى، كما سنرى بعد قليل، وذلك لأن قاصد الشيء يقبل عليه بوجهه، فلما كان توجيه الوجه إلى شيء له جهة تابعاً لقصد، واشتغال القلب به، عبّر عنه به، وجعل التوجه بالوجه إلى جهة مخصوصة - وهي القبلة - بأمر الله مذكراً بإقبال القلب على الله الذي لا تُحدِّدُه الجهات.

فالإنسان يتضرع ويسجد لله تعالى بوجهه، وعلى الوجه يظهر أثر الخشوع. والمراد من إسلام الوجه لله إفراده بالعبادة والإخلاص له، بأن لا يجعل الإنسان بينه وبين ربه وسطاء يُقربونه إليه زُلْفَى، فإنه أقرب إليه من حبل الوريد.

ويقول الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(١).

أي: أخلص دينه، وخضع له، وتوجه إليه في العبادة، وكان له مثل أعلى في إبراهيم أبي الأنبياء و خليل الرحمن، الذي كان محباً لله، وكان محبوباً لله، ولا أحد أحسن ديناً ممن جعل قلبه سالماً خالصاً لله وحده، لا يتوجه إلى غيره في دعاء أو رجاء، ولا يرى في هذا الوجود إلا آثار صفات الله وسننه، فلا يطلب إلا من خزائن رحمته، وهو مع إيمانه وتوحيده، محسن في عمله، متخلق بأخلاق الله الذي أحسن كل شيء خلقه.

والإمام محمد عبده يقول: إن العبرة عند الله بالقلوب والأعمال، وملة إبراهيم الحنيفية هي الصفوة في إخلاص التوحيد وإحسان العمل، وعبر عن توجه القلب بإسلام الوجه، لأن الوجه أعظم مظهر لما في النفس من الإقبال والإعراض، والسرور والكآبة، وغير ذلك، ويقول التنزيل الحكيم في سورة آل عمران: ﴿فَإِنْ حَاجَّكَ فَعَلْ أَسَلَتْ وَجْهَكَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْنِ﴾^(٢).

والمقصود من الدين إنما هو الوفاء بلوازم الربوبية، فإذا أسلمت وجهي لله لا أعبد غيره، ولا أتوقع الخير إلا منه، ولا أخاف إلا من قهره وسطوته، ولا أشرك به أحداً، كان هذا هو تمام الوفاء بلوازم الربوبية والعبودية.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

ويذكر الفخر الرازي في معنى إسلام الوجه لله ثلاثة أقوال:

الأول: أخلصت عملي لله. يُقال: أسلمت الشيء لفلان، أي: أخلصته له، ولم يشاركه فيه غيره.

الثاني: أسلمت وَجْهَ عملي لله، فكل ما يصدر مني من الأعمال، فالوجه في الإتيان بها هو عبوديتي لله تعالى، والانقياد لإلهيِّهِ وَحُكْمِهِ.

الثالث: أسلمت نفسي لله، وليس في العبادة مقام أعلى من إسلام النفس لله، فيصير العبد كأنه موقوف على عبادته، عايدٌ عن كل ما سواه.

وقيل: إن معنى الآية السابقة: إن جادلوك بالأقويل المزورة والمغالطات، فأسند أمرك إلى ما كلفت به من الإيمان والتبليغ، وتوجه إلى الله بذاتك، كما جاء في الحديث الشريف: «سجد وجهي للذي خلقه وصوره»، وكان النص الكريم يقول - كما يعبر بعض العلماء العاملين -: أن من يقصد إلى الحجاج، بعد تأييد الحق، وتفنييد الباطل، لا يقصد إلا المجادلة والمشاغبة، لمحض العناد والمشاكسة، وذلك شأن المبطلين، وأما طالب الحق فإنه يخل بالوقت أن يضيع.

ولقد تعرض الفخر لمعنى إسلام الوجه لله عند تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

وذكر في ذلك وجوهاً:

أولها: أن الوجه أشرف الأعضاء، من حيث أنه معدن الحواس والفكر والتخيل، فإذا تواضع الأشرف، كان غيره بالتواضع أولى.

ثانيها: أن الوجه قد يكتفى به عن النفس، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿إِلَّا آيَاتَهُ وَجِوَرِيهِ الْأَعْلَى﴾^(٣).

(٣) سورة الليل، الآية: ٢٠.

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٢.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.

ثالثها: أن أعظم العبادات هي السجدة، وهي إنما تحصل بالوجه، فلا جرم خص الوجه بالذكر، ولهذا قال زيد بن عمرو بن نُقَيْل:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ لَهُ الْمُرْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالًا
فَيَكُونُ الْمَرْءُ وَاهِبًا نَفْسَهُ لِهَذَا الْأَمْرِ، بِإِذْلَالِهِ.

وذكر الوجه وأراد به نفس الشيء، وذلك لا يكون إلا بالانقياد والخضوع وإذلال النفس في طاعته، وتجنب معاصيه.

ومعنى: لله أي: خالصاً لله، ولا يشوبه شرك، فلا يكون عابداً مع الله غيره، أو معلقاً رجاءه بغيره، وفي ذلك دلالة على أن المرأة لا ينتفع بعمله إلا إذا فعله على وجه العبادة في الإخلاص والقرية.

وأما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ تَحْسِينٌ﴾ أي: لا بد أن يكون تواضعه لله بفعل حسن لا بفعل قبيح، ويبين أن من جمع بين الأمرين: الإخلاص والإحسان، فله ثواب عظيم عند ربه، وفوق هذا لا يلحقه خوف من مستقبل، ولا يناله حزن من الحاضر أو الماضي.

وفي سورة الأنعام: ﴿إِنِّي رَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

وهذا الكلام على لسان أبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام؛ أي: وجهت عنادتي وطاعتي لربي وذلك لأن من كان مطيعاً لغيره، متقاداً لأمره، فإنه يتوجه بوجهه إليه، فجعل توجيه الوجه كناية عن الطاعة.

وإنما جعلت وجهي خالصاً لله، لأنه الذي أبدع خلق السموات والأرض وما فيهن، وأكمل خلقهن أطواراً.

ويقول الحق جل جلاله في سورة الأعراف: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾^(٢).

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

أي: أقبلوا على مساجد الله، وعلى الصلاة فيها بإخلاص، والإخلاص يقتضي تجرد النية، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «إتَمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»^(١).

ويقول ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صَوْرَتِكُمْ وَلَا إِلَى أَعْمَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَنِيَّاتِكُمْ»^(٢).

والمعنى: أعطوا لربكم توجهكم عند كل مسجد تعبدون الله فيه، مع صحة النية، وحضور القلب، وصرف الشواغل، وادعوه مخلصين له الدين. ولنتذكر أن كل شيء من أعمال العباد هَالِكٌ وباطلٌ، إلا ما أريد به وجه الله، ولذلك يقول الله تعالى في سورة القصص: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْكُرْسِيُّ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٣).

ويقول في سورة يونس: ﴿وَأَنْ أَوْفَى وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٤).

وإقامة الوجه هنا كناية - كما يقول الرازي - عن توجيه العقل بالكلية إلى الطلب الدّين، لأن من يريد أن ينظر إلى شيء نظراً بالاستقصاء فإنه يُقيم وجهه في مقابله، بحيث لا يصرفه عنه بالقليل ولا بالكثير، لأنه لو صرفه عنه ولو بالقليل، لبطلت تلك المقابلة، وإذا بطلت فقد اختل الإبصار، فلهذا حسن جعل إقامة الوجه للدّين كناية عن صرف العقل بالكلية إلى طلب الدين، وحنيفاً أي: مائلاً إليه ميلاً كلياً، معرضاً عما سواه إعراضاً كلياً، ويتحقق ذلك بالإخلاص التام، وعدم الالتفات إلى غيره.

ويقول في التنزيل الحكيم في سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَنِينُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

(١) حديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٤) سورة يونس، الآية: ١٠٥.

النكاس لا يعلمون»^(١). أي: أقبل بكلك على الدين، مائلاً عن كل ما عداه، والزم فطرة الله، وهي فطرة التوحيد. وكذلك يقول في السورة نفسها: ﴿فَأَنْزَرْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ بَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾^(٢).

ويقول في الذكر المجيد في سورة الإنسان: ﴿إِنَّمَا تَطَلَعُ لِيَوْمٍ إِتِمَّ وَرُبُّهُ يُنَكِّرُ جَرَّةً وَلَا شُكْرًا﴾^(٣). وقد جاءت في تفسير «مفاتيح الغيب» عند هذه الآية الكريمة العبارة التالية: «الإحسان إلى الغير تارة يكون لأجل الله تعالى، وتارة يكون لغير الله تعالى، إما طلباً للمكافأة، أو طلباً لحمد وثناء، وتارة يكون لهما، وهذا هو الشرك، والأول هو المقبول عند الله تعالى، وأما القسمان الباقيان فمردودان.

قال تعالى: ﴿لَا تَبْلُغُوا حُدُودَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِقَاةً النَّاسِ﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّكَ لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْتَوُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ ذَكَورٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الضَّعِيفُونَ﴾^(٥). ولا شك أن التماس الشكر من جنس المن والأذى.

إذا عرفت هذا فنقول: القوم لما قالوا: إنما نطعمكم لوجه الله، بقي فيه احتمال أنه أطعمه لوجه الله ولسائر الأغراض على سبيل التشريك، فلا جرم نفى هذا الاحتمال بقوله: ﴿لَا تُبْدُ بِنُكْرِ جَرَّةً وَلَا شُكْرًا﴾^(٦).

ولإقامة الوجه لله ثمرات أشار القرآن إلى جانب منها حين قال في سورة البقرة: ﴿بَلْ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٧).

وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى ثلاث ثمرات، هي:

- | | |
|------------------------------|------------------------------|
| (١) سورة الروم، الآية: ٣٠. | (٥) سورة الروم، الآية: ٣٩. |
| (٢) سورة الروم، الآية: ٤٣. | (٦) سورة الإنسان، الآية: ٩. |
| (٣) سورة الإنسان، الآية: ٩. | (٧) سورة البقرة، الآية: ١١٢. |
| (٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤. | |

١ - نيل الأجر الجزيل، واستحقاق الكرامة في دار الإقامة.

٢ - عدم الخوف من الآخرة.

٣ - عدم الحزن في الجنة.

وتتحقق تلك الثمرات - كما نفهم من النص الكريم - باجتماع أمرين، هما التوحيد النابع من الإيمان الخالص، وإحسان العمل.

وأما غير المؤمنين فهم نهب الخوف والحزن، ولا شك - كما يقول تفسير المنار - أن المخاوف والأحزان تساور الذين لبسوا إيمانهم بظلم الوثنية، وأسأؤوا أعمالهم بالإعراض عن الهداية الدينية.

ترى أصحاب النزعات الوثنية أو الإلحادية في خوف دائم حتى مما لا يخيف، لأنهم يعتقدون ثبوت السّلطة الغيبية القاهرة لكل ما يظهر لهم من عمل لا يهتدون إلى سببه، ولا يعرفون تأويله.

يستجدون للدجالين والمشعوذين، ويرتعدون من حوادث الطبيعة الغريبة، إذا ظهر لهم نجم مذنب، تخيلوا أنه منذرٌ يُهددهم بالهلاك، وإذا أصابتهم مصيبة بما كسبت أيديهم من الفساد، توهموا أنها من تصرف بعض العباد، وتراهم في جزع وهلع من حدوث الحوادث، ونزول الكوارث، لا يصيرون في البأساء والضراء، ولا ينفقون في الرخاء والسراء:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٦﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾^(١).

ويلح التفسير في البيان فيقول: إن هذه حال من فقد التوحيد الخالص، وحرّم من العمل الصالح في هذه الحياة الدنيا:

﴿وَلَعَدَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُصَرُّونَ﴾^(٢).

وإنما كان صاحب النزعات الوثنية في خوف مما يستقبله، وحزن مما ينزل

(١) سورة المعارج، الآيات: ١٩-٢٣.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٦.

به، لأن ما اخترعه له وهمه من السلطة الغيبية لغير الله التي يحكمها في نفسه، ويجعلها حجاباً بينه وبين ربّه، لا يمكنه أن يعتمد في الشدائد عليها، ولا يجد عندها غناء إذا هو لجأ إليها، وما هو من سلطتها على يقين، وإنما هو من الظانين أو الواهيين.

وأما ذو التوحيد الخالص فهو يعلم أنّ لا فاعل إلا الله تعالى، وأنّه من رحمته قد هدى الإنسان إلى السنن الحكيمة التي يجري عليها في أفعاله، فإذا أصابه ما يكره بحث في سببه، واجتهد في تلافيه من السنّة التي سنّها الله تعالى لذلك، فإن كان أمراً لا مردّ له، سلم أمره فيه إلى الفاعل الحكيم، فلا يحار ولا يضطرب، لأن سنده قوي عزيز، والقوة التي يلجأ إليها كبيرة لا يعجزها شيء، فإذا نزل به سبب الحزن، أو عرض له مقتضى الخوف، لا يكون أثرهما إلا كما يطيف خاطر بالبال، ولا يلبث أن يعرض له الزوال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١).

ومن ثمرات إقامة الإنسان وجهه لله تبارك وتعالى النجاة والأمان، والترقي إلى أعلى الدرجات والاستمساك بحبل متين لا ينقطع، لأن أوثق الأسباب هو جانب الله، وكل ما عداه هالك ومنقطع:

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْمَرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٢).

اللهم إنا نسألك بفضلك وظولك وحولك أن تقيم وجوهنا لك وحدك، وأن ترزقنا الإخلاص في عبادتك، إنك أنت البر الرحيم^(٣).



(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٢.

(٣) أخلاق القرآن، ج ٥، ص ١٠٧-١١٧.

البحث الثاني:

أدب العبودية لله تعالى

أختي المؤمنة:

لقد ذكر القرآن الكريم مادة العبودية والعبادة في عشرات من الآيات، وأرشدنا إلى أن العبادة لله هي غاية العباد التي خلقهم لها، فذلك حيث يقول في سورة الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴿١﴾. وهذه العبادة يجب أن تكون مقصورة على الله، ومن هنا نهى الحديث عما يستشعر - ولو في الظاهر - بأن هناك عبودية لغير الله، فقال: «لا يقل أحدكم لمملوكه: عبدي وأمتي، وليقل: فتاتي وفتاتي» لأن المستحق لذلك إنما هو الله وحده لأنه رب العباد^(٢).

والعبودية نوعان: عامة وخاصة، فالعبودية العامة هي خضوع أهل الأرض والسموات كلهم لجلال الله وقهره، وقد أشار القرآن إلى هذا النوع في قوله تعالى في سورة مريم: ﴿إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٣). والعبودية الخاصة هي عبودية الطاعة والمحبة، وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغْيَانَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْكَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨)﴾ (٤) فهؤلاء العباد هم الذين خضعوا لربهم طوعاً واختياراً.

والعبودية «حلية المؤمن الذي يُوقن بوحدانية ربه، ويوقن ببقائه وجزائه فهو

(١) سورة الذاريات، الآيات: ٥٦-٥٨.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، المختصر برقم ١٤١٣.

(٣) سورة مريم، الآية: ٩٣.

(٤) سورة الزمر، الآيات: ١٧، ١٨.

يستعدّ دائماً لهذا اللقاء بالعمل الصالح، واجتناب الإشراف بالله سبحانه، ولذلك يقول تعالى في القرآن في سورة الكهف: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١). ويقول في سورة البينة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَامَةِ﴾^(٢).

ولسمو فضيلة «العبودية» جعلها القرآن الكريم صفة لخاتم الأنبياء وإمام المرسلين، فقال في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾^(٣). وقال في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لِنُذِيرَ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا هُوَ الَّذِي يُضِلُّ الْيَاسِرَ﴾^(٤). وقال في سورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَقَدْ يَجْعَلُ لَكُمْ عِزًّا﴾^(٥). وقال في سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٦). وقال في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا﴾^(٧) جمعاً متزاحمة متراكمة عليه. وقال في سورة الأنفال: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّنَجُّ الْجَمْعَانِ﴾^(٨).

والعبد المراد في هذه الآيات الكريمة هو رحمة الله للعالمين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وكان من الممكن أن تصفه الآيات هنا بالنبوة أو الرسالة أو الرحمة أو غير ذلك من الصفات السامية الدالة عليه، ولكن الآيات أثرت وصفه في هذه المواطن الشريفة الكريمة بصفة «العبودية» لأنها أشرف الفضائل التي يفخر بها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أمام خالقه تبارك وتعالى.

ومن هنا قال النبي ﷺ: «لا تُظَرُونِي كما أَظَرَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(٩). وحينما سأله عائشة عن اجتهاده في

- | | |
|-----------------------------|------------------------------|
| (١) سورة الكهف، الآية: ١٦٠. | (٦) سورة الفرقان: الآية: ١. |
| (٢) سورة البينة، الآية: ٥. | (٧) سورة الجن، الآية: ١٩. |
| (٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣. | (٨) سورة الأنفال، الآية: ٤١. |
| (٤) سورة الإسراء، الآية: ١. | (٩) صحيح البخاري برقم ٣٤٤٥. |
| (٥) سورة الكهف، الآية: ١. | |

طاعة ربّه وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أجاب: «يا عائشة، أفلا أكونُ عَبْدًا شُكُورًا»^(١).

وكذلك جعل القرآن الكريم فضيلة «العبودية» صفةً وخُلُقًا للأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فقال في سورة ص عن داود: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٢). وقال في السورة نفسها عن سليمان: ﴿يَوْمَ أَلْقَيْتُ إِلَيْهَ أَوَّابٌ﴾^(٣). وقال فيها عن أيوب: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا أَوْبَ﴾^(٤). وقال فيها: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا إِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ وَيَسْحَاقَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْحَاقَ وَإِسْحَاقَ﴾^(٥). وقال عن زكريا في سورة مريم: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُ زَكِيًّا﴾^(٦). وقال في السورة ذاتها عن عيسى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَنَّانِي الْكَتَّابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾^(٧). وقال في سورة الإسراء عن نوح: ﴿ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شُكُورًا﴾^(٨). وقال في سورة التحريم مشيراً إلى نوح ولوط: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾^(٩).

ويعضّي القرآن بعد هذا في التنويه بشأن فضيلة العبودية فيصف بها «المخضر» حيث يقول في سورة الكهف: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾^(١٠).

ثم يصف بها الأبرار الأخيار من المؤمنين المستجيبين لله تعالى، فيقول في سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(١١) إلى آخر السورة، ويقول في سورة الزخرف: ﴿يَعْبَادِ لَا حَافِئُ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾^(١٢). ويقول في الإسراء مخاطباً الشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾^(١٣).

- | | |
|---------------------------|-------------------------------|
| (١) صحيح مسلم برقم ٢٨١٩. | (٨) سورة الإسراء، الآية: ٣. |
| (٢) سورة ص، الآية: ١٧. | (٩) سورة التحريم، الآية: ١٠. |
| (٣) سورة ص، الآية: ٣٠. | (١٠) سورة الكهف، الآية: ٦٥. |
| (٤) سورة ص، الآية: ٤١. | (١١) سورة الفرقان، الآية: ٦٣. |
| (٥) سورة ص، الآية: ٤٥. | (١٢) سورة الزخرف، الآية: ٦٨. |
| (٦) سورة مريم، الآية: ٢. | (١٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٥. |
| (٧) سورة مريم، الآية: ٣٠. | |

وهكذا يُشعرنا حديثُ القرآن عن العبودية بأنها إحدى المنازل السامية التي يتطلع إليها الأبرار من المؤمنين، ويفاخرون بها، ولذلك قال قائلهم ينجي ربُّهُ ﷻ :

وَمَا زَادَنِي شَرَفًا وَتَبِيهَا وَكَدْتُ بِأَخْمَصِي أَطَا الثَّرِيَا
دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا

ولا عجب فالعبودية هي أعلى مراتب الدين وأرقى درجات الطاعة، وإلى هذا يشير قول سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام: «الإحسانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» (١) (٢).



البحث الثالث:

أدبُ الطاعة والانقياد لله تعالى

أختي المؤمنة :

الطاعة لها معنى ديني، يتصرف إلى الاهتمام بأوامر الله تعالى، ولها معنى أخلاقي وهو التقيد بالواجب، ومجاوبة من يدعو إليه باستمرار، وبهذا المعنى تصير الطاعة خلقاً، وتصبح فضيلة من فضائل القرآن الكريم، لأنها تثمر المبادرة إلى الاستجابة كأنها عادة أو طبيعة.

ولقد ذكر القرآن مادة الطاعة في أكثر من مائة موضع، وجعلها الحق جل جلاله صفة بارزة من صفات المؤمنين، ولذلك يقول على لسانهم في سورة البقرة: ﴿وَكَاوَلُوا سَمِيئًا وَأَطَعَتَا وَعَفَاكَ رَبُّكَ وَإِنَّكَ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣).

أي: سمعنا قولك وأطعنا أمرك، أو سمعنا قول الله وقول رسوله سماعاً

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في حديث طويل.

(٢) أخلاق القرآن، ج ١، ص ١٤٦-١٤٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

المطيعين، وليس كالكافرين الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾^(١). ويقول الطبري عن الآية: سمعنا قول ربنا وأمره إيانا بما أمرنا به، ونهيه عما نهانا عنه، وأطعنا ربنا فيما ألزمننا من فرائضه، واستعبدنا به من طاعته وسلمنا له.

ولقد تكرر في التنزيل المجيد الحديث عن طاعة الله ورسوله، لأن طاعة الله هي الأساس، وطاعة الرسول من طاعة الله، فقال الله في سورة آل عمران: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٢).

وقال في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾^(٣).

وقال في سورة النور: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٤). أي: سمعنا ما قيل لنا، وأطعنا من دعانا إلى حكم الله ﷻ، وقال في سورة الحجرات: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾^(٥). إن تأتمروا بأمر الله وأمر رسوله لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئاً، وقد أكد الحديث الذي رواه مسلم هذا المعنى، وهو قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ﴾^(٦). كما أكد القرآن أن طاعة الرسول من طاعة الله، فقال في سورة النساء: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٧) بل عمم القرآن هذا الحكم على جميع المرسلين فقال في سورة النساء أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطِيعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٨).

وقد جاء في سورة الشعراء عدة مرات في القرآن على لسان المرسلين: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾^(٩).

وفيما يتعلق برسولنا محمد عليه الصلاة والسلام روى ابن حنبل الحديث:

- | | |
|--------------------------------|-------------------------------------|
| (١) سورة البقرة، الآية: ٩٣. | (٦) سورة الأحزاب، الآية: ٧١. |
| (٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٢. | (٧) سورة النساء، الآية: ٨٠. |
| (٣) سورة النساء، الآية: ٥٩. | (٨) سورة النساء، الآية: ٦٤. |
| (٤) سورة النور، الآية: ٥١. | (٩) سورة الشعراء، الآيتان: ١٠٧-١٠٨. |
| (٥) سورة الحجرات، الآية: ١٤. | |

«من أطاع نبيه كان من المهتدين». وجاء قول سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «من أطاعني دخل الجنة»^(١). وجعل الرسول الطاعة لأميره الذي ولاه من صميم الطاعة للرسول، فروى البخاري قوله ﷺ: «مَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي».

والطاعة المأمور بها في الإسلام أنواع وألوان، فهناك طاعة الله، وطاعة الرسول ﷺ، وطاعة أولي الأمر، وطاعة الوالدين، وطاعة القائد أو الأمير، وطاعة الناصح، وقد روى الإمام ابن حنبل الحديث القائل: «أَطِعْ أَبَاكَ». ومن باب أولى طاعة الأم، لأن حق الأم مقدم على حق الأب في الإحسان وحُسن المعاملة والطاعة، ولقد صح أن صحابياً سأل رسول الله ﷺ: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «أُمُّكَ». قال: ثم مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ». قال: ثم مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ»^(٢).

ولكن طاعة الوالدين في الإسلام مشروطة بأن تكون في دائرة ما أباحه الله، أما ما حرمه فلا طاعة فيه على الابن للأبوين، يقول الله تعالى عن الأبوين في سورة لقمان: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾^(٣).

يقول الطبري: وإن جاهدك أيها الإنسان والداك على أن تشرك بي في عبادتك إياي مع غيري، مما لا تعلم أنه لي شريك - ولا شريك له تعالى ذكره علواً كبيراً - فلا تطعهما فيما أراداك عليه من الشرك بي.

ومن أنواع الطاعة في الإسلام طاعة المرأة لزوجها، والحديث يقول: «الخير النساء من إذا أمرها زوجها أطاعته، وإذا نظر إليها سرتها، وإذا غاب عنها حفظت في ماله وعرضه». ولكن الطاعة هنا أيضاً مشروطة بأن لا تكون في معصية، فقد روى البخاري قول رسول الله صلوات الله عليه: «لا تطيع المرأة زوجها في معصية».

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٥.

(١) حديث صحيح.

(٢) حديث صحيح.

ونفهم من حديث القرآن أن ثواب الطاعة جزيل جليل، ومن ثوابها ظفر الإنسان بالكرامة العظمى من الله جل جلاله، وحصوله على الفوز العظيم من الله ولذلك يقول القرآن في سورة النساء: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١).

أي: من يطع الله ورسوله في العمل بما أمره الله به، والوقوف عند ما حده له، ويجتنب ما نهاه عنه، يدخله جنات تجري من تحت غروسها وأشجارها الأنهار، باقين فيها أبداً، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها، ولا يفنون وذلك هو الفوز العظيم.

وقد عاد القرآن إلى تأكيد هذا المعنى فقال في سورة النور: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ يَخَشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^(٢).

من يطع الله ورسوله فيما أمر ونهى، ويسلم لحكمهما له وعليه، ويخف عاقبة معصية الله، ويتق عذاب الله، فأولئك هم الفائزون يرضى الله تعالى عنهم يوم القيامة وينعيمهم العظيم، وأمنهم من عذابه الأليم.

ومن ثمرات الطاعة الحصول على الأجر الحسن والثواب الجميل، ويدل على ذلك قول الله تعالى في سورة الفتح: ﴿إِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدْكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾^(٣).

أي: إن تطيعوا الله في إجابته إياه إذا دعاكم إلى الجهاد، يعطكم الله على إجابته أجراً حسناً عظيماً، وهو الجنة.

ومن ثواب الطاعة حسن الصحبة في الجنة مع أهل الشرف والمكانة، فذلك حيث يقول الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾^(٤).

أي: من يطع الله والرسول بالتسليم لأمرهما، وإخلاص الرضا بحكمهما،

(١) سورة النساء، الآية: ١٣.

(٣) سورة الفتح، الآية: ١٦.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٢.

(٤) سورة النساء، الآيات: ٦٩، ٧٠.

والانتهاى إلى أمرهما، والآنزجار عما نهيا عنه من معصية الله، فهو مع الذين أتعم الله عليهم بهدائته، والتوفيق لطاعته في الدنيا وفي الآخرة، إذا أدخل الجنة، مع النبيين وأتباعهم الصديقين، الذين صدقوهم واتبعوا منهاجهم، والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، والصالحين الذين صلحت سريرتهم وعلانيتهم^(١).



البحث الرابع:

أذْبُ الْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

أختي المؤمنة:

«الإنابة» كلمة تُفيد معنى الرجوع والإقبال، يُقال: أنابَ يَنُوبُ إنابةً فهو مُنِيبٌ، إذا أقبل ورجع، والإنابة إلى الله جلّ جلاله هي الرجوعُ إليه بالاستغفار، والتمائب، وإخلاص العمل لوجهه، والتمزام بابه، وفي الإنابة أيضاً معنى المسارعة بالعودة إلى الله، والثبات على كلمته كلما همّ الشيطان أن يوسوس للإنسان، بالإعراض عنه أو النسيان له، ولذلك قال السلف: المنيب هو الذي يعود سريعاً إلى ربه، وكأن معنى الإنابة سيتجدد ويتأكد ويتكرر، لأن الوسوسة مستمرة، فلا بد من استمرار الاعتصام بباب الله واللجوء إلى الإنابة في كل وقت، وبهذا تكسب الإنابة صفة الفضيلة الأصيلة والخلق الكريم، فالمنيب هو الذي يسارع إلى طاعة الله ومواطن مرضاته، ويرجع إليه في كل وقت، وببذل طاقته ليلتزم طاعته.

ولقد جاء ذكر الإنابة في خمسة عشر موضعاً من القرآن الكريم، والله تبارك وتعالى يدعو إليها عبادةً وفي طبيعتهم الأنبياء والمرسلون، فيقول لرسوله

(١) أخلاق القرآن، ج ٥، ص: ٢٠٥-٢١٠.

صلوات الله وسلامه عليه ومن ورائه أتباعه في سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَنِينُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ مُبِينٌ إِلَيْهِ وَآتَوْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٢﴾﴾^(١). ويقول في سورة الزمر: ﴿وَأَنبِئُوا بِآيَاتِكُمْ وَالرِّسَالَةَ الَّتِي كُنْتُمْ تُرْسِلُونَ﴾^(٢). وفي سورة لقمان: ﴿وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣). فالله جل جلاله يأمر عبده المستجيب بأن يسلك طريق المنيب فقد صار مثله منيباً، فكانه قال له: اسلك طريق الإنابة وكن ميبياً. ومن سمو فضيلة الإنابة جعلها الله عزَّ شأنه صفة لأنبيائه ورسله، فقال عن خليل الرحمن إبراهيم في سورة هود: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾^(٤). والحليم هو غير العجول على الانتقام من المسيء، والأواه هو كثير التأوه من الذنوب، والتأسف على الناس، والتضرع إلى الله، وكان إبراهيم عليه السلام منيباً: أي: كثير الرجوع إلى الله، يرجع إليه في كل أمر.

وكذلك قال الله تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام في سورة هود: ﴿قَالَ بِتَقْوَاهِ أَرَهَبَشْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَدَّدْتَنِي مِنهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(٥). أي: أقبل عليه بكل حسي ونفسي، وإليه وحده أرجع في كل ما نابني من الأمور في الدنيا، ومنه و...ه أطلب ثوابي على أعمالي، فأنا لا أرجو منكم أجراً، ولا أخاف منكم ضراً وعلى ربي أقبل بطاعتي، كما أرجع إليه بتوبتي.

ويقول القرآن الكريم عن سليمان في سورة ص: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾^(٦). ويأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يبلغ عباده قوله في سورة الشورى: ﴿وَمَا أَخْلَقْتُ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ

(١) سورة الروم، الآيات: ٣٠، ٣١. (٤) سورة هود، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٤. (٥) سورة هود، الآية: ٨٨.

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٥. (٦) سورة ص، الآية: ٣٤.

تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١﴾. أي: عليه توكلت واعتمدت في مجامع الأمور، وإليه أرجع في كل الشؤون.

وقد جعل القرآن الكريم فضيلة الإنابة علامة الاهتداء وعنوان الاستقامة على الطريق وشارة الذين يتفكرون ويتدبرون فيعرفون، فيستجيبون لنداء الحق ودعوة الصديق، فيقول في سورة الرعد: ﴿وَقَوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّي قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَتَى ﴿٢٩﴾﴾ (٢). وأكد كتاب الله هذا المعنى حين قال تعالى في سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَهَارُونَ أَنْ اقْبِلُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِ كِبْرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ يَخْتَلِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿٣﴾﴾. أي: من يتقبل الحق ويرفض العناد، ولهذا كانت الإنابة من فضائل الإنسان المتدبر المتذمّر المعتمر، فقال الله تعالى في سورة غافر: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿٤﴾﴾. ويقول في سورة ق: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ (٥). فكان الإنابة مغواناً على استجلاء الدلائل المثبوتة في آيات الله الكونية الدالة على جلاله وسلطانه.

والإنابة تقارن الخشية لله تعالى، وهذا هو القرآن يتحدث عن ثواب المتقين الذين خشوا ربهم بالغيب، وكانت قلوبهم رجوعاً إلى الله موصولة الأسباب على الدوام بحماه، فيقول في سورة ق: ﴿وَأَرْسَلْنَا قُرَيْشًا مَّكََّةَ لَعْنَةً يُرْسَلُونَ فِيهَا عَبِيدٌ كَارِهُونَ إِذْ يَسْتَجِيبُ لِلَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَى اللَّهِ وَرَبِّهِمْ أَنْ يُبَتِّلُوا مَا كَانُوا بَدِيعَةً يُنَادُونَ لِلْغَيْبِ مُخْلِطِينَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴿٢٣﴾﴾ رجاع إلى الله ﴿حَاطِطٍ ﴿٢٤﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ ﴿٢٥﴾﴾ (١) مقبل على طاعة الله، وإذا عمزت الإنابة قلب صاحبها

(١) سورة الشورى، الآية: ١٠. (٤) سورة غافر، الآية: ١٣.

(٢) سورة الرعد، الآيات: ٢٧-٢٩. (٥) سورة ق، الآيات: ٦-٨.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١٣. (٦) سورة ق، الآيات: ٣١-٣٣.

وكانت نتيجة لما تقدمها من تذكّر، فإنها تقيم الإنسان على صراط العدل، وتغرس فيه نزعاً الرجوع السريع إلى الحق، ولقد أعطانا القرآن المجيد في هذا مثلاً كريماً يتعلّق بنبيّ الله داود عليه السلام، حيث قال الله تعالى في القرآن في سورة ص: ﴿وَهَلْ أُنْتَكَبُوا إِلَّا سِرّاً إِذْ سَوَّرُوا لِي الْحَرَابَ ۖ﴾ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا نَحْفَظُ حَصَانِ بَنِي بَعُثْنَا عَلَىٰ بَعْضِ فَاتَكُمُ يَنْتَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُنْطِطُ وَأَعِدْنَا إِلَيْكَ سَوَاءَ الصَّرِيحِ ۖ﴾ (٢٢) إِذْ هَذَا أَخِي لَهُ نِسْعٌ وَيَسْعُونَ نَجْمَةً وَإِنْ نَجْمَةٌ وَنَجْدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْتَنِي وَعَزَفِي فِي الْخَطَابِ ۖ﴾ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَيْكَ يَأْمُرُ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَالِقَةِ لَبَنِي بِمَعْظَمِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۖ﴾ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ ۖ﴾ (٢٥) (١).

والله جلّ جلاله يُبشّر عباده المنيبين أحسن البشّرى فيقول في سورة الزمر: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَىٰ اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْهُم بِمَا كَانُوا يَسْتَغْفِرُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أَزْوَاجُ الْأَلْبَابِ ۖ﴾ (١٧) (٢) (٣).



البحث الخامس:

أدب التقوى في دين الله تعالى

أختي المؤمنة:

لقد تحدّث القرآن الكريم عن الوقاية التي تُحقّق الحصانة عن طريق التقوى، فقال في سورة غافر: ﴿فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكْرُوهًا وَحَاقَ بِقَالٍ فِرْعَوْنَ سَوْءَ الْعَذَابِ ۖ﴾ (٤). وقال في سورة الطور: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَيَعْبُرُونَ ۖ﴾ (١٧) فَتَكْبِهِنَّ يَمًا

(١) سورة ص، الآيات: ٢١-٢٥.

(٢) سورة الزمر، الآيات: ١٧-١٨.

(٣) أخلاق القرآن، ج ١، ص ٢٤٩-٢٥٣.

(٤) سورة غافر، الآية: ٤٥.

ءَانْتَهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهْتُمْ رَبَّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾^(١). وقال أيضاً على لسان المؤمنين: ﴿فَمَنْ أَتَى اللَّهَ عَابِتًا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾^(٢). وقال في سورة الإنسان: ﴿فَوَقَّهْتُمْ اللَّهَ شَرَّ ذَلِكَ الْبُورِ وَلَقَّهْتُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾^(٣). وقد أكد الحديث الشريف معنى الوقاية التي تُحَقِّقُ الحِصَانَةَ والصِيَانَةَ عن طريق التَّقْوَى، فجاء فيه: «فوقى أحدكم وجهه من النار» أي: حفظه وصانه من عذابها بالطاعة وعمل الخير، وجاء فيه: «مَنْ عصا الله لم تقه من الله واقية» أي: لم يكن من أهل السلامة والأمان. وفي كلام الإمام علي عليه السلام: «كنا إذا اشتد البأسُ واحمرَّ الحدقُ اتقينا برسول الله ﷺ». أي: جعلناه حِصَانَةً لنا ووقايةً.

ويرى المرحوم الرافعي أن كلمة «التقوى» لا تفسرها بالتحديد والتعيين إلا كلمة «الخلق الثابت» وأن خير الأمم هي التي توظد دعائم مجتمعها بهذا الخلق الثابت، فإن مرجع التقوى في مظاهرها الاجتماعية إلى شيئين: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما المبدأ والغاية لكل قوانين الآداب والاجتماع، ثم مرجعها في حقيقة نفسها إلى شيء واحد، وهو الإيمان بالله، فالأمة التي تكون لأفرادها فضيلة التقوى تكون لها من هذه الفضيلة صفات اجتماعية مختلفة، يؤدي مجموعها إلى صفة تاريخية واحدة، وهي أنها خير أمة، على هذا جاء قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(٤).

وعلى أساس هذا التصور العميق لرسالة الإسلام ذكر الرافعي في تعريف التقوى أنها فضيلة أراد بها القرآن الكريم إحكام ما بين الإنسان والناس، وإحكام ما بين الإنسان والخالق، ولذلك كان المراد من حديث القرآن عن التقوى في أكثر الآيات أن يتقي الإنسان كل ما فيه ضرر لنفسه، أو مضارة لغيره.

ولو رجعنا بعد هذا التمهيد إلى القرآن المجيد لوجدناه يدعو إلى التقوى

(١) سورة الطور، الآيات: ١٧-١٨.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ١١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٤) سورة الطور، الآية: ٢٧.

ويحثُّ عليها ويأمرُ بها، ولقد ورد قوله تعالى: ﴿انْفَعُوا اللَّهَ﴾ عشرات المرات في كتابه العزيز، وقال في سورة البقرة: ﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الرَّادِ التَّقْوَى وَالتَّقْوَى يُتَأَوَّلُ الْآلِيبِ﴾^(١). وقال في سورة الأعراف: ﴿وَيَلِاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾^(٢). وقال عن المؤمنين في سورة الفتح: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾^(٣). وقال في سورة الأنفال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَقَّوْا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُعْزِزْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٤). ويُحدِّثنا القرآن بأن دعوة الأنبياء كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب وإلياس لأقوامهم كانت قولهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٥) وقد تكرر هذا التعبير القرآني ست مرات.

والقرآن الكريم يُعطينا ملامح عن صفات أهل التقوى، فيذكر لنا أن سماتهم التذکر الذي تتبَعُهُ التَّوْبَةُ والْعُودَةُ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ، فيقول في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٦). ويذكر أن من سماتهم الإحسان في الطاعة، والإتقان في العمل، فيقول في ختام سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾^(٧). ويذكر أيضاً أن من شأن التقوى أن يكون صاحبها يقظاً فطناً، فيقول في سورة الأحزاب مخاطباً نساء النبي ﷺ: ﴿يٰۤاَيُّهَا النِّبِيُّ لَسْنَا لَسْنَا كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾^(٨).

ثم يذكر في سورة آل عمران مجموعة من علامات التقوى، فيُورد ست علاماتٍ أو صفاتٍ، وهي: الإنفاق في حالي الغنى والضيقة، وكظم الغيظ وهو أشد حالات الغضب، أي: إمساك ما في النفس بالصبر، ولذلك يروى أن خادمة للسيدة عائشة غاظتها يوماً فقالت عائشة: «لله دُرُّ التَّقْوَى، ما تركتُ لذي

- | | |
|------------------------------|-------------------------------|
| (١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧. | (٥) سورة الشعراء، الآية: ١٠٦. |
| (٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٦. | (٦) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١. |
| (٣) سورة الفتح، الآية: ٢٦. | (٧) سورة النحل، الآية: ١٢٨. |
| (٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٩. | (٨) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢. |

غِيظَ شَفَاءً». والعلامة الثالثة للمتقين: العفو عن الناس، وترك مؤاخذتهم على هفواتهم، والعلامة الرابعة: الإحسان، والخامسة: المسارعة إلى الاستغفار من الذنب، والسادسة: عدم الإصرار على المعصية ولو صغرت.

يقول الله تعالى في ذلك: ﴿وَكَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن شَيْءٍ أَلَّا يَغْفِرَ لَهُ وَكُلَّمَا يَخُوتٌ أَوْ ظَلَمُوا فَعَلُوا حَسَوتًا يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَسْمَانُ كَأَنَّهَا غَابِقٌ أَخْرَجَ أَدْمَانَ فَكَرَّوهُمْ فِيهَا ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ مَن كَفَرَ مِن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ بَحْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَقَمُّ أَجْرُ الْمُكْفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾^(١).

وبتدبرنا في آيات القرآن المجيد نفهم أن التقوى هي التي تحقق جمال الصداقة وبقائها وحسن ثمرتها، فالله يقول في سورة الزخرف: ﴿الْأَخْلَاقَ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُهُمُ بَئِضُهُمْ عِدُوًّا إِلَّا الْكٰفِرِينَ﴾^(٢). أي: أن كل صداقة أو صحبة لغير الله تعالى فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة، وأما الصداقة المخلصة فإنها باقية دائمة في الدنيا والآخرة، وقد يتضح هذا في عقولنا أكثر إذا تذكرنا أن التقوى تستلزم صيانة الإنسان حرماً سواء، فكيف بصيانة الإنسان لحرمات صديقه، وهذا أبو العباس الطوسي يقول: تعظيم حرمات المؤمنين من تعظيم حرمات الله تعالى، وبه يصل العبد إلى مجمل حقيقة التقوى.

والتقوى تستلزم الإيمان بالله، وفهم كتاب الله، ومعرفة هدي رسول الله، ودراسة سير الصالحين من عباد الله، والاهتداء بهذا كله لوجه الله. ولذلك يقول الإمام محمد عبده: التقوى أن تقي نفسك من الله أي: من غضبه وسخطه وعقوبته، ولا يمكن هذا إلا بعد معرفته، ومعرفة ما يرضيه وما يسخطه، ولا يعرف هذا إلا من فهم كتاب الله تعالى، وعرف سنة نبي ﷺ، وسيرة سلف الأمة

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٣٣-١٣٦.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

الصالح، مطالباً نفسه بالاهتداء بذلك كله، فمن صبر وصابر ورباط، لأجل حماية الحق وأهله، ونشر دعوته، واتقى ربّه في سائر شؤونه، فقد أعد نفسه بذلك للفلاح والفوز والسعادة عند الله تعالى.

وهناك صلة بين التقوى والبرّ الذي هو جماع الفضائل ومجموعة أعمال الخير، ولذلك يقول الله في القرآن الكريم في سورة البقرة: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾^(١). وكذلك أشار القرآن إلى الصلة الوثيقة بين التقوى والإيمان، حتى قال بعض المفسرين: إنه لا اعتداد بالإيمان في الآخرة إلا إذا صحبه التقوى، وكانت أثراً له في النفس والعمل الصالح، وهناك آيات كثيرة تشير إلى ارتباط الإيمان بالتقوى، فالله تعالى يقول في سورة البقرة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا ءَاتَقَوْا لَمَسُوهُنَّ مِن عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾^(٢). ويقول في سورة المائدة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا ءَاتَقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾^(٣). ويقول في سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا ءَاتَقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾^(٤). ويقول في سورة آل عمران: ﴿وَإِن تَوَيْتُوا وَتَقَوْنَا فَلَئِمَّا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٥). ويقول في سورة يونس: ﴿أَلَا لِمَ أَتَىٰ آلَ يُونُسَ أَن يَخْرُجَ مِن بَطْنِ الْحُوتِ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٦). ويقول في سورة يوسف: ﴿وَلَا جَزَاءَ لَآخِرَةٍ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(٧). ويقول في سورة النمل: ﴿وَإِن مِّنَ أُمَّةٍ إِلَّا لَدَيْنَا لَآخِرَةٌ﴾^(٨).

وإذا كان معنى قول الله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ هو اتقوا عذابه وعقابه، وإنما تُضاف التقوى إلى الله تعظيماً لأمر عذابه وعقابه، إذ لا يمكن لأحد أن يتقي ذات الله، أو يتأبى على مشيئته، فقد ينبغي لنا أن نتدبر فيما جاء في تفسير المنار وهو: «إن العقاب الإلهي الذي يجب على الناس اتقاؤه قسمان: دنيوي وأخروي، وكل منهما يتقي باتقاء أسبابه، وهو نوعان: مخالفة دين الله وشرعه،

- | | |
|------------------------------|--------------------------------|
| (١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩. | (٥) سورة آل عمران، الآية: ١٧٩. |
| (٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٣. | (٦) سورة يونس، الآيات: ٦٢-٦٤. |
| (٣) سورة المائدة، الآية: ٦٥. | (٧) سورة يوسف، الآية: ٥٧. |
| (٤) سورة الأعراف، الآية: ٩٦. | (٨) سورة النمل، الآية: ٥٣. |

ومخالفة سننِهِ في نظامِ خلقِهِ، فأما عقاب الآخرة فَيُتَّقَى بالإيمان الصحيح والتوحيد الخالص والعمل الصالح، واجتناب ما يُنافي ذلك من الشرك والكفر والمعاصي والردائل، وذلك مبيِّنٌ في كتاب الله وسُنَّةِ رسوله ﷺ، وأفضل ما يستعان به على فهمهما واتباعهما سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة الأولين من آل الرسول وعلماء الأمصار^(١).



البحث السادس:

آدَبُ التَّوَكَّلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى

أختي المؤمنة:

التَّوَكَّلُ فِي الدِّينِ هُوَ أَنْ يُفَوِّضَ الْإِنْسَانُ أَمْرَهُ إِلَى رَبِّهِ، وَيَكْتَفِي بِهِ فِيهِ، وَلِذَلِكَ كَانَ مَعْنَى التَّوَكَّلِ بِلَفْظِ التَّفْوِضِ فِي الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ غَافِرٍ: ﴿مَسْتَدْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٢). أَي: أَرُدُّ أَمْرِي كُلَّهُ إِلَى اللَّهِ. وَلَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو فَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ».

والتَّوَكَّلُ فَضِيلَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ مَفْرُوضَةٌ، إِذْ بِهَا يَتَحَقَّقُ مَعْنَى الْإِيمَانِ، حَتَّى قِيلَ: مَنْ لَا تَوَكَّلَ لَهُ لَا إِيمَانَ لَهُ، وَكَأَنَّهُمْ اسْتَمَدُوا ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، وَقَدْ تَكَرَّرَ قَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ سِتْ مَرَّاتٍ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ - مَرَّتَيْنِ - وَالْمَائِدَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالمَجَادِلَةِ وَالتَّغَابُنِ.

(١) أخلاق القرآن، ج ١، ص ٢٠٣-٢٠٩.

(٢) سورة غافر، الآية: ٤٤.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٣.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(١) أي: يكل إليه أمره مؤمناً إيمان إذعان واطمئنان بأنه هو حسبه وكافيه، وناصره ومعينه، وأنه قادر لا يعجزه شيء، عزيز لا يغلبه ولا يمتنع عليه شيء أراده ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢) أي: فهو تعالى بمقتضى عزته وحكمته، عند إيمانهم به، وتوكلهم عليه، يكفيهم ما أهمهم، وينصرهم على أعدائهم، وإن كثر عددهم، وعظّم استعدادهم، لآته عزيزٌ غالبٌ على أمره، حكيمٌ يضع كل أمرٍ في موضعه، على ما جرى عليه النظام والتقدير في سنته، ومنه نصر الحق على الباطل. بل كثيراً ما تدخل عنايته بالمتوكلين عليه في باب الآيات وخوارق العادات، كما حصل في غزوة بدر، وآيات الله لا نهاية لها، وقد أجمع المحققون على أنّ التوكل لا يقتضي ترك الأسباب من العبد، ولا الخروج عن السنن العامة في أفعال الرب.

كما أن التوكل الحقيقي الصادق يفتح أمام صاحبه طريقاً إلى الجنة بغير حساب، فقد جاء في الحديث المتفق عليه أن سبعين ألفاً من أمة محمد ﷺ يدخلون الجنة بغير حساب: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ - من الرقية - ، ولا يتطيرون، ولا يكتنون، وعلى ربهم يتوكلون».

ولا عجب فالتوكل كل رجوع بصير كامل إلى رحاب الله ﷻ ، وهذا يورث الرضا الإلهي، وهو الفوز الأكبر، ومن هنا يقول أبو عثمان الجيري: التفويض رد ما جهلت علمه إلى عالمه، والتفويض مقدمة الرضا، والرضا باب الله الأعظم، ومن توكل على الله ورضي به رياً وهدايا، رضي الله عنه، والتنزيل المجيد يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَزْلَمْنَا لَهُمْ حَيْرَ الْبَرِيَّةِ ۗ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَسِيَ رَبُّهُ ۗ﴾^(٣).

والتوكل الحقيقي الصادق يجعل كل ما يسوقه الله إلى عبده طيباً وطاهراً وكرماً، ولذلك يقول ابن سالم البصري: التوكل على الله فريضة، لقوله تعالى:

(٣) سورة البيّنة، الآيات: ٧، ٨.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٩.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٩.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١)، والحركة في طلب الرزق مباح لمن عجز عن التوكل، فإن الله تعالى يقول: ﴿أَتَيْقُوا مِن طَيْبَتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾^(٢)، مما يفتح بالطلب والكسب منه طيب وخيـث، وما يفتح بالتوكل لا يكون إلا طيباً، لأن ذلك من معدن طيب.

والله جل جلاله هو خير من يُعتمدُ عليه، ويُوكلُ إليه، ويُستمد منه، ويُستعانُ به، وكذلك ورد قول الله في القرآن: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾^(٣) ثلاث مرات في سورة النساء، كما ورد في سورة آل عمران: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٤)، وجاء في سورة الإسراء: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾^(٥).

والتوكل الحقيقي الصادق هو أسطعُ برهانٍ على تحقيق عقيدة التوحيد في قلب المتوكل وعقله، ولذلك كان التوكل - كما يصور رشيد رضا - أعلى مقامات التوحيد، فالمؤمن الموحد الكامل لا يتوكل على مخلوق مريب لخالقه مثله، بل مشهده في المخلوقات أنها أسباب سخر الله تعالى بعضها لبعض في نظام التقدير العام، الذي أقام الله به أمور العالم المختار منها وغير المختار، فكلها سواء في الخضوع لسننه في الأسباب والميات، وهي فيما وراء تـخيره إياها متساوية في عجزها عن النفع والضرر، فشان المؤمن المتوكل في دائرة الأسباب، أن يطلب كل شيء عن طريق سببه، خضوعاً لسنن الله تعالى في نظام خلقه، وهو بذلك يطلبها من حيث أمره الله أن يطلبها أمراً تكوينياً قدرياً، وتشريعاً تكليفاً، فإذا جهل الأسباب، أو عجز عنها، وكل أمره فيها إلى ربه تبارك وتعالى، داعياً إياه أن يعلمه ما جهل، بما سنه من وسائل العلم، ومنها الإلهام في بعض الأحيان، وأن يسخر له ما عجز عنه من جماد أو حيوان أو إنسان.

ومن جلال المكانة لفضيلة التوكل أن نرى الحق جل جلاله يأمر بها خاتم

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٦٥.

رسله صلى الله عليهم وسلم، ويكرر هذا الأمر ويؤكد في مواضع كثيرة من كتابه المجيد، فيقول له في سورة النساء: ﴿فَأَقْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(١). ويقول في سورة هود: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٢). ويقول في سورة التوبة: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْمَرْضِ الْعَظِيمِ﴾^(٣). ويقول في سورة الرعد: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتَلَّوْا عَلَيْهِمُ الَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾^(٤). ويقول في سورة الفرقان: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾^(٥).

ويقول ابن القيم في حديثه عن التوكل: فترك الأسباب المأمور بها فادح في التوكل، وقد تولى الحق إيصال العبد لها، وأما ترك الأسباب المباحة فإن تركها لما هو أرجح منها مصلحة فممدوح وإلا فهو مذموم. ويقول أيضاً: فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة. ويقول عن بصراء الصوفية: وأجمع القول على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد. قال سهل بن عبد الله: من طعن في الحركة - العمل - فقط طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، فالتوكل حال النبي ﷺ، والكسب سنته، فمن عمل على حاله فلا يترك سنته.

والعبد يتوكل على الله أن يقيمه في سبب يوصله إلى مطلوبه، فإذا قام به توكل على الله في حال مباشرته، فإذا أتمه توكل على الله في حصول ثمراته، فكان التوكل سيصاحب المؤمن في مراحل سعيه وعمله. ولقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام أصدق المتوكلين، ومع ذلك كان يحمل معه الزاد في

(١) سورة النساء، الآية: ٨١.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٠.

(٢) سورة هود، الآية: ١٢٣.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٥٨.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٩.

السفر، وليس درعين حينما قاتل في غزوة أحد، وكان يدخر لأهله قوت سنة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (١) (٢).



البحث السابع:

آدب الدعوة إلى الله سبحانه

أختي المؤمنة:

الدَّعْوَةُ إِلَى الْخَيْرِ فَضِيلَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ قُرْآنِيَّةٌ تَجْعَلُ صَاحِبَهَا دَاعِيَةً مِنْ دَعَاةِ الصَّلَاحِ وَالْإِضْلَاحِ، وَمِغْوَانًا عَلَى تَقْوِيَةِ جَانِبِ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ، وَمَقَاوِمَةَ الشَّرِّ وَالْإِثْمِ، وَقَدْ أَمَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ حِينَ قَالَ اللَّهُ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ:

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْقُرْآنِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣).

أي: ولتكونوا أمة تدعو إلى الخير، أو ليتحقق فيكم ومنكم وبكم أمة تدعو إلى الخير، وهذه - كما يعبر القشيري - إشارة إلى أقوام قاموا بالله الله، لا تأخذهم لومة لائم، ولا تقطعهم عن الله استنامة إلى علة، وقفوا جملتهم على دلالات أمره، وقصروا أنفاسهم على طاعته، واستغرقوا أعمارهم على تحصيل رضاه، عملوا لله ونصحوا الدين لله، ودعوا خلق الله الله، فربحت تجارتهم، وما خسرت صفقتهم.

والدعوة إلى الخير هي دعوة إلى الله، ودعوة إلى سبيله، لأن الله جل جلاله لا يدعو إلا إلى الخير، ولا يأمر إلا بالبر، والقرآن يقول في سورة الحج:

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٢) أخلاق القرآن، ج ٢، ص: ٢١٤-٢٢٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

﴿وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَعْلَمٌ مُّهُدًى مُّسْتَقِيمٌ﴾^(١).

ويقول في سورة القصص: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ مَّيْمَنَةِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢).

ويقول في سورة فصلت: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣).

ومن خلال هذه الصفة الكريمة نجد كتاب الله المجيد يُحدِّثنا بأنها صفة من صفات الخالق الحميد، فقال في سورة الأنفال:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٤).

ويقول في سورة البقرة: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾^(٥).

وفي سورة يونس: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾^(٦).

وفي سورة إبراهيم: ﴿قَالَتْ رَسُولُ رَبِّي أَنَّىٰ شِئْتَ فَأَطِيعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ﴾^(٧).

والدعوة إلى الخير من وظيفة الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه

أجمعين، ففي سورة يوسف نجد الحق جل علاه يقول لخاتم المرسلين محمد:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٨).

وفي سورة الرعد: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَفَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَهُي أَدْعُوا وَإِلَهِهِ

مَتَابِ﴾^(٩).

(١) سورة الحج، الآية: ٦٧.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٧.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٢١.

(٦) سورة يونس، الآية: ٢٥.

(٧) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.

(٨) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٩) سورة الرعد، الآية: ٣٦.

وفي سورة المؤمنون: ﴿وَلَيْكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ مِرْكَبٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ (١).
 وفي سورة الأحزاب يقول له: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا
 وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ (٢).
 وفي سورة الشورى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴿٣﴾﴾.

وهذا نوح عليه السلام يحدثنا بأنه دعا قومه فأطال الدعوة، وصبر عليها طويلاً
 برغم إعراضهم وفرارهم واستكبارهم:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا
 دَعَوْتُهُمْ لِتَغْيِيرِ لَهْمِ جَعَلُوا أَسْمِعُكُمْ فِي مَا دَابَّتْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَفْتَحُوا رَبَّهُمْ وَأَنكَبُوا أَتْرَابًا
 ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَلْتُ لَهُمْ وَأَنْزَلْتُ لَهُمْ آمِنًا ﴿٩﴾﴾ (٤).

والدعوة إلى الخير كانت صفة الأخيار من عباد الله، فهذا هو مؤمن آل
 فرعون يقول فيما يقول في سورة غافر:

﴿وَتَقْوِي مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿١١﴾ تَدْعُونِي لِأَكْثَرِ
 بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَنِيِّ ﴿١٢﴾ لَا جَزَاءَ لَنَا
 تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُم دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَرَبِّ الْمُسْرِفِينَ
 هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿١٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
 بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٤﴾﴾ (٥).

ومجال الدعوة إلى الخير واسع فسيح، يشمل الدعوة إلى الإسلام، لأنه
 هدى الله لعباده، ويشمل الدعوة إلى الطهارة والإخلاص في القول والعمل،
 ويشمل الدعوة إلى مقاومة الأهواء والشهوات، ويشمل الدعوة إلى ما فيه مصلحة
 الفرد والجماعة.

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٧٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآيات: ٤٥، ٤٦.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١٥.

(٤) سورة نوح، الآيات: ٥-٩.

(٥) سورة غافر، الآية: ٤٤-٤٦.

وهذه الدعوة قد تأخذ شكلاً عاماً، كالدعوة التي تقوم بها الأمة المؤمنة لغيرها من الأمم، عن طريق هيئات الإرشاد وجماعات النصح والتوجيه، وقد تكون هذه الدعوة خاصة يقوم بها فرداً لفرد، أو فرد لجماعة، وقد تكون بين الغرباء، وقد تكون بين الإخوة أو الأصدقاء، وما هو ذا الغزالي يقرر أن حقوق الأخوة عليك أن تدعو أخاك إلى الخير، ويرسم الطريق إلى ذلك، ويحذر من بعض معاطبه، ليسلم السائر فيه، ويقول فيما يقول:

فليست حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال، فإن كنت غنياً بالعلم فعليك مواساته من فضلك، وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا، فإن علمته وأرشدته، ولم يعمل بمقتضى العلم، فعليك النصيحة، وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل، وفوائده تركه، وتخوفه بما يكرهه في الدنيا والآخرة، لينزجر عنه، وتنبهه على عيوبه، وتقبح القبيح في عينه، ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر، لا يطلع عليه أحد، فما كان على المَلَأ فهو توبيخ وفضيحة، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة، إذ قال ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن»^(١). أي: يرى منه ما لا يرى من نفسه، فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه، ولو انفرد لم يستفد، كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة.

وقال الشافعي رحمه الله: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظ علانية فقد فضحه وشانه. وقيل لمسعراً: أتحبُّ من يُخبرك بعيوبك؟ فقال: إن نصحتني فيما بيني وبينه فتنعم، وإن قرعني بين المَلَأ فلا.

والإسلام العظيم - دائماً - يحث أقوى الحث على أن تكون الدعوة إلى الخير شعار المؤمنين المهتمين، ويحرض على بث ما لدى الإنسان من علم أو فقه، ليكون ذلك حقاً ميسوراً يبلغ أهليه ومستحقه، وفي الأثر: «لا تمنعوا العلم أهله، فإن في ذلك فساداً لدينكم، والتباساً بصائرکم». قال تعالى في سورة البقرة:

(١) حديث صحيح، صحيح الجامع برقم ٦٦٥٥.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا آتَانَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أَزْوَاجًا يَبْغُضُهُمُ اللَّهُ وَيَبْغُضُهُمُ النَّاسُ ۗ إِنَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْنَا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ (١).

ولقد رسم التنزيل الحكيم الطريقة المثلى للدعوة إلى الخير، فقال في سورة النحل:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَخَدِّعْ لَهُمُ بِالْقَوْلِ إِذْ رَكَعُوا هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِيْنَ ﴿١٢٥﴾﴾ (٢).

ويعلق الإمام الرازي في تفسيره على هذه الآية الكريمة فيقول: أهل العلم ثلاث طوائف: الكاملون الطالبون للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية، والمكاملة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالدلائل القطعية اليقينية، وهي الحكمة.

والقسم الثاني الذين تغلب على طباعهم المشاغبة والمخاصمة، لا طلب المعرفة الحقيقية والعلوم اليقينية، والمكاملة اللاتقة بهؤلاء المجادلة التي تفيد الإفحام والإلزام.

وهذان القسمان هما الطرفان، فالأول هو طرف الكمال، والثاني طرف النقصان.

وأما القسم الثالث فهو الوساطة، وهم الذين ما بلغوا في الكمال إلى حدّ الحكماء المحققين، ولا في النقصان والردالة إلى حد المشاغبين المخاصمين، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصلية والسلامة الحلمية، وما بلغوا إلى درجة الاستعداد لفهم الدلائل اليقينية والمعارف الحكمية، والمكاملة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالمرعظة الحسنة، وأدناها المجادلة.

والدعوة إلى الخير تستلزم أن يكون الداعي إليه عارفاً للخير عليمًا به، مميّزاً بينه وبين الشر، حتى يكون على بينة من أمره، وأن يكون عليمًا بأحوال من

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٥٩-١٦٠.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

يدعوهم إلى الخير، وأن يكون بصيراً بالنفوس والطباع والمجتمعات، وأن يكون متمكناً بما يدعو إليه من خير، وفي القرآن المجيد يقول الله في سورة البقرة:

﴿أَنذَرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾^(١).

ويقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَمَّ تَقُولُوا مَا لَّا تَفْعَلُونَ ﴿٣١﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَّا تَفْعَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾^(٢).

ويقول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه: «مررت ليلة أُسريَ بي بقوم تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بمقاريضٍ من نارٍ، فقلتُ: مَنْ هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء خطباء أمتك من أهل الدنيا كانوا يأمرون بالبرِّ وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون»^(٣).

والحكيم يقول:

لَا تَلِمَ الْمَرْءَ عَلَى فِعْلِهِ وَأَنْتَ مَنْسُوبٌ إِلَى مِثْلِهِ
مَنْ دَمٌ شَيْئاً وَأَتَى مِثْلَهُ فَإِنَّمَا يَزِرِي عَلَى عَقْلِهِ

ولقد كان سيدنا رسول الله ﷺ إذا دعا إلى شيء بدأ بنفسه.

وإذا كانت الدعوة إلى الخير تتحقق في بعض مجالاتها بالقول استجابة لهدى الله القائل في سورة النساء: ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿لَا حَتَرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٥).

وقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(٦).

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الصف، الآيتان: ٢-٣.

(٣) - أحمد، ج ٣ / ١٨١، وهو حديث حسن.

(٤) سورة النساء، الآية: ٩.

(٥) سورة النساء، الآية: ١١٤.

(٦) صحيح مسلم برقم ٤٧.

فإن الدعوة إلى الخير تتحقق بصورة أقوى وأعلى عن طريق القدوة والسلوك والتطبيق، وكم من داع إلى الخير بهديه وسمته، وأحواله وأعماله .
وثواب الله تعالى على فضيلة الدعوة إلى الخير ثواب جليل عظيم تشير إليه الأحاديث النبوية التالية:

- ١ - لَمَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»^(١).
- ٢ - «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها»^(٢).
- ٣ - «طوبى لعبدٍ جعله الله مفتاحاً للخير، ومغلاقاً للشر، وويلٌ لعبدٍ جعله الله مفتاحاً للشرّ ومغلاقاً للخير»^(٣).
- ٤ - «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً»^{(٤) (٥)}.



البحث الثامن:

آداب الأسوة والقدوة

أختي المؤمنة:

الأسوة: ومثلُ القدوة وهو ما يُؤنس به، أي يُقتدى به. والافتداء هو السير على سُنن من يُتخذ قدوة، أي: مثلاً يُتبع، واتسّر فلان بفلان - كافتدى - حذا حذوه، أو نهج نهجه، في قول أو عمل أو عقيدة.

(١) صحيح الجامع برقم ٦٢٣٩.

(٢) صحيح البخاري برقم ٢٩٤٢ و٣٠٠٩ و٣٧٠١.

(٣) الأحاديث الصحيحة، ج ٣ / ٣٢١.

(٤) صحيح الجامع برقم ٦٢٣٤.

(٥) أخلاق القرآن، ج ٣، ص ١٩١-٢٠٤.

وتطلب الأسوة هو الحرص على أن يكون أمام الإنسان مثل يحتذيه، أو قدوة يتشبه بها، مع استشعار الإنسان روح التأسى الحميد في أعماله وأحواله، وهذه الصفة الطيبة تُحَلَق من أخلاق القرآن الكريم، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم.

ولا شك أن القرآن العظيم هو أكملُ أسوة وأفضلُ قدوة، ولذلك يقول الحق جل جلاله في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١).

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ»^(٢). ومعنى هذا أن المسلم يجب عليه أولاً أن يطلب الهدى من الله، في كتاب الله، فإن وجد الحكم أو الرأي لم يتجه إلى سواه، وإن لم يجد طلبته اتجه إلى سنة رسول الله، ولذلك يقول بعض السلف: كانت الأئمة بعد النبي ﷺ، يستشيرون الأئمة من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب والسنة، لم يتعدوه إلى غيره، اقتداء بالنبي ﷺ.

والقرآن المجيد يقول في سورة الأحزاب عن المثل الأعلى في القدوة والأسوة أمام المسلم، وهو الرسول صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرٍ كَبِيرٍ﴾^(٣).

إنه - كما يذكر القشيري - إمامكم، وقدوتكم، ويجب عليكم متابعتة فيما يرسمه لكم، ويعلق الإمام ابن كثير على الآية الكريمة، مبيناً أنها أصل كبير في التأسى برسول الله ﷺ، في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسى بالنبي ﷺ، يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته، وانتظار الفرج من ربه ﷻ، صلوات الله وسلامه عليه، دائماً إلى يوم الدين.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٢) حديث صحيح.

ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا، وتزلزلوا واضطربوا من أمرهم يوم الاحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

أي: هلا اقتديتم به، وتأسيتم بشمائله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

وإنما كان الرسول أسوة حسنة لأنه الكامل في صفاته وأخلاقه، وحسبه شهادة الله تعالى فيه، وهي فوق كل شهادة، وهي قول الله له: ﴿وَرَأَيْكَ لَئَلَىٰ خُلُقِي عَظِيمٍ﴾^(١).

والرسول هو القائل: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(٢).

والله عزّ شأنه هو الذي يأمر بالافتداء بالرسول، والائتساء بهديه، والاتباع لسنته، واتخاذها أسوة ومثلاً، ويؤكد ذلك في القرآن أكثر من مرة فيقول الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٣).

ويقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(٤).

ويقول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُوْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٥).

ويؤكد الرسول ذلك فيقول: «كلُّ أمتي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى» قالوا: يا رسول الله، ومنْ يَأْبَى؟ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»^(٦).

والإنسان العاقل لا يقبل لنفسه ولا يرتضي لذاته أن يسير في الحياة كيفما اتفق، يخطئ مرة، ويصيب مرة، دون رائد أو مرشد، بل إن العقل الحكيم يدعو

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) الأحاديث الصحيحة برقم ٤٥، وصحيح الجامع برقم ٢٣٤٩.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٥) سورة النساء، الآية: ٦٥.

(٦) صحيح البخاري برقم ٧٢٨٠.

صاحبه إلى أن يتخذ لنفسه قدوة ومثلاً، فيتنفع بتجاربه من تقدمه أو سبقه، ولا يتأبى على التقليد في الخير، والمتابعة في الرشد، ولذلك قال الحكيم:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبّه بالرجالِ فلاحٌ
وكلّما كان الرائدُ أعلمَ وأقومَ وأحكمَ فازَ المتطلبُ للأسوة الرشيديّة بخيرِ
أعظم وثمرّة أكبر، ورسول الله عليه الصلوة والسلام هو أفضل أسوة وأكمل قدوة.
ولقد عقد الطوسي في كتابه «اللمع» فصلاً جعل عنوانه: الأسوة والاقتداء
برسول الله ﷺ، وفيه يقول: أمر الله ﷻ الخلق كافة بطاعة رسول الله ﷺ، كما
أمرهم بطاعته، لقوله ﷺ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (٢).

وأمرهم بالقبول منه، بقوله ﷺ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ﴾ (٣).

وأمرهم بالانتهاء عما نهى عنه بقوله جلّ وعلا: ﴿وَمَا نَهَيْكُمْ عَنْهُ فَأَنْهَوْا﴾ (٤).

ودلّهم على الاهتداء باتباعه بقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَمَّا كُم تَهْتَدُونَ﴾ (٥).

ووعدهم الهداية بطاعته بقوله ﷺ: ﴿وَأِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ (٦).

وحذّرهم الفتنة والعذاب الأليم إن خالفوا أمره، فقال ﷺ: ﴿فَلْيَحْذَرِ

الَّذِينَ يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ يُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧).

ثم عرفنا الله تعالى أن محبة الله للمؤمنين، ومحبة المحبّين لله في اتباع

رسوله، بقوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٨).

ثم ندب الله المؤمنين إلى الأسوة الحسنة برسوله عليه الصلوة والسلام،

فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (٩).

- | | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| (١) سورة المائدة، الآية: ٩٢. | (٦) سورة النور، الآية: ٥٤. |
| (٢) سورة النساء، الآية: ٨٠. | (٧) سورة النور، الآية: ٦٣. |
| (٣) سورة الحشر، الآية: ٧. | (٨) سورة آل عمران، الآية: ٣١. |
| (٤) سورة الحشر، الآية: ٧. | (٩) سورة الأحزاب، الآية: ٢١. |
| (٥) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨. | |

ثم يعود للطوسي فيقول:

فأما الخاصة من هؤلاء الخاصة: لما أحكموا الأصول، وحفظوا الحدود، وتمسكوا بهذه السنن، ولم يبق عليهم من ذلك بقية؛ استبحثوا أخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام، التي وردت في أنواع الطاعات، والآداب والعبادات، والأخلاق الشريفة، والأحوال الرصينة، وطالبوا أنفسهم بمتابعة رسول الله عليه الصلاة والسلام، والأسوة به، واقتفاء أثره فيما بلغهم من آدابه وأخلاقه، وأفعاله وأحواله، فعظموا ما عظم، وصغروا ما صغر، وقللوا ما قلل، وكثروا ما كثر، وكرهوا ما كره، وفي استسلام إبراهيم وإنابته، يعود فيقرر الأسوة ويكررها، مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن بُوِيَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَيُّ الْحَيُّ﴾^(١).

فالأسوة في إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، هؤلاء الذين يدركون قيمة التجربة التي عاناها هذا الرهط الكريم، ويجدون فيها أسوة تتبع، وسابقة تهدي، فمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتخذ منها أسوة، وهو تلميح موح للحاضرين من المؤمنين.

فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج، من يريد أن يحيد عن طريق القافلة، من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق، فما بالله من حاجة إليه سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَيُّ الْحَيُّ﴾.

وقد كرر القرآن ذكر الأسوة في إبراهيم للتأكيد، والمراد بالذين معه قد يكون الأنبياء، أو أصحابه المؤمنين، أو أتباعه الذين آمنوا، وكلهم خيار، فيهم قدوة طيبة في التبرؤ من الكفر والإشراك.

وفي سورة الأنعام يذكر الحق تبارك وتعالى طائفة من الأنبياء والمرسلين، ثم يقول عنهم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٦.

لَيْسُوا بِهَا يَكْفِيهِمْ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ فَأَفْتَدِيَهُمْ قَدْ لَّا آمَنَّاكُمْ عَلَيْهِمْ
أَجْرًا إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْمَلَكِيَّةِ ﴿٩٠﴾ (١).

والمعنى - كما في تفسير المنار - أن أولئك الأنبياء هم الذين هداهم الله الهداية الكاملة، فيهداهم - دون غيرهم - اقتدي أيها الرسول، فيما يتناوله كسبك وعملك، مما بعثك به؛ من تبليغ الدعوة، وإقامة الحجّة، والصبر على التّكذيب والجحود، وعلى إيذاء أهل العناد والجحود، ومقلدة الآباء والجدود، وإعطاء كل حال حقها من مكارم الأخلاق، وأحاسن الأعمال، كالصبر والشكر، والشجاعة والحلم، والإيثار والزهد، والسخاء والبذل، والحكم بالعدل.

وإنما أمره الله أن يقتدي بهداهم الذي هداهم إليه في سيرتهم، سواء ما كان منه مشتركاً بينهم، وما امتاز به في الكمال بعضهم، كما امتاز نوح وإبراهيم وآل داود بالشكر، ويوسف وأيوب وإسماعيل بالصبر، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس بالقناعة والزهد، وموسى وهارون بالشجاعة وشدة العزيمة في النهوض بالحق، فالله تعالى قد هدى كل نبي، ورفع درجات في الكمال، وجعل درجات بعضهم فوق بعض، ثم أوحى إلى خاتم رسله خلاصة سير أشهرهم وأفضلهم، وهم المذكورون في القرآن الكريم، وأمره أن يقتدي بهم في هداهم، وهذه هي الحكمة العليا لذكر قصصهم في كتاب الله تعالى، وقد قرر الحق جل جلاله أن القرآن المجيد قد جاء بالحق وصدق المرسلين، وأن الرسول ﷺ لم يكن بدعاً من الرسل، فعلمنا من هذا أنه عليه الصلاة والسلام كان مهتدياً بهداهم كلهم، وبهذا كانت فضائله ومناقبه الكسبية أعلى من جميع مناقبهم وفضائلهم، لأنه اهتدى بها كلها، فاجتمع له من الكمال ما كان متفرقاً فيهم، إلى ما هو خاص به دونهم، ولذلك شهد الله تعالى له بما لم يشهد به لأحد منهم، فقال له: ﴿وَأَنَّكَ لَكَلِمٍ خُلِقَ عَظِيمٌ﴾ (٢).

وأما فضائله وخصائصه الوهية، فأمر تفضيله عليهم فيها أوضح وأظهر،

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٨٩-٩٠.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤.

وأعظمها عموم بعثته وختم النبوات والرسالات به، وكمال الأشياء في خواتيمها، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ويرى الرازي المفسر أن موضع الاقتداء والتأسي في الآية السابقة فيه أكثر من قول:

أ - يُقْتَدَى بِهِمْ فِي الْقَوْلِ بِالتَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ لِلَّهِ عَنِ كُلِّ مَا يَلِيْقُ بِجَمَالِهِ وَجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ.

ب - يُقْتَدَى بِهِمْ فِي جَمِيعِ الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ وَالصِّفَاتِ الرَّفِيعَةِ.

ج - يُقْتَدَى بِهِمْ فِي شَرَائِعِهِمْ، إِلَّا مَا نَسَخَهُ اللَّهُ مِنْهَا.

ويجوز أن يكون الأمر كل هذه الأمور^(١).



البحث التاسع:

أدب الأمر بالمعروف

أختي المؤمنة:

لقد عُني القرآن الكريم بالحديث عن «المعروف» مؤكداً التوجية إليه والحث عليه، مُذَكِّراً بِجَمَالِ هَذَا الْمَعْرُوفِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمِيَادِينِ، وَهَذِهِ مِثْلًا سُورَةُ الْبَقَرَةِ أَكَادَ أَسْمِيهَا «سُورَةُ الْمَعْرُوفِ»؛ لِأَنَّ مَادَتَهُ جَاءَ ذِكْرُهَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً، فَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ ۚ وَأَلَّفَهُ عَنِّي حَلِيمٌ﴾^(٢).

قال المفسرون: إن القول المعروف هو الكلام الجميل الذي تقبله النفوس والقلوب ولا تنكره، يرد الإنسان به السائل من غير عطاء، مع ستر لما وقع منه

(١) أخلاق القرآن، ج ٥، ص: ١١-٢٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٣.

من الإلحاف في السؤال، مما يثقل على النفوس، أو ستر حال الفقير بعدم التشهير به، فذلك خير من صدقة يتبعها أذى.

والقرآن يُطالب الأمة المؤمنة بأن تكون أمة الخير والأمر بالمعروف، فيقول الله في سورة آل عمران: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

أي: لتكونوا كلكم أمة تتصف بهذه الفضائل، ولذلك رجح الإمام محمد عبده أن الأمر هنا عام يشمل الأمة كلها، ولا يقتصر على طائفة منها أو مجموعة، كما يذهب إلى ذلك بعض المفسرين، ويدل على العموم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْمَعْرُوفُ﴾^(٢) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾^(٣).

وعلى هذا يكون التقدير: فلتوجد منكم وبكم وفيكم أمة داعية إلى الخير، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، وهذا يشمل كل قادر على أقل تقدير.

وكتاب الله العزيز قد جعل فضيلة الأمر بالمعروف إحدى صفات الأمة التي نعتها ربها بأنها خير أمة، فقال في سورة آل عمران: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(٤).

وجعل هذه الفضيلة صفة الأمة المؤمنة المتكافلة المتعاونة على الخير، فقال في سورة التوبة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٥).

وجعل هذه الفضيلة إحدى صفات الذين آمنوا وباعوا الله أنفسهم وأموالهم، واشتروا منه الجنة لقاء ذلك، واستحقوا التبشير من ربهم بأنهم أصحاب الفوز العظيم، فقال عنهم في سورة التوبة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمُ بِالزُّكُوفِ﴾^(٦).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٢) سورة العصر.

الْمُتَجِدِّدُونَ الْأُمُورَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ .

وجعل هذه الفضيلة صفة الصالحين المسارعين في الخيرات الذين لا يضع لهم أجر ولا ذكر فقال الله في سورة آل عمران: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ
﴿١١٥﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١١٥﴾﴾ (٢) .

وجعل القرآن الكريم فضيلة الأمر بالمعروف من صفات المنصورين
المعتزين بعزة الله سبحانه، فقال في سورة الحج: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ
حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بَعْضًا لَفُتِنَتِ صَارِعُ وَيَبِغُ
وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ
لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ (٣) .

والأمر بالمعروف، الناطق بالخير، الموجه إلى البر، يكون من أهل الثواب
الجزيل والأجر العظيم، ولذلك يقول القرآن في سورة النساء: ﴿لَا خَيْرَ فِي
كَثِيرٍ مِمَّنْ تَبَعُونَهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَلِكَ اتَّبَعْتَهُ مَرَاتِبَاتٍ اللَّهُ فَسَوْفَ يُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤) .

وفضيلة الأمر بالمعروف إحدى فضائل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وما
هو ذا القرآن يقول في سورة الأعراف عن المؤمنين:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي الْوَادِعِ
وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
الطَّيِّبَاتِ وَيَبْشُرُ عَنْهُمْ بِإِسْرِهِمْ وَالْأَعْلَانِ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِمُ الْآيَاتِ يَأْمُرُوا بِهِ وَعَضُّوا
وَصَبَرُوا وَأَتَّبَعُوا النَّوْرَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٥) .

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٢ .

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٤ .

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١١٤، ١١٥ .

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧ .

(٥) سورة الحج، الآيتان: ٤٠، ٤١ .

بل أخبرنا القرآن العظيم أن الله ﷻ قد قيّد طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام بالمعروف، وذلك في عقد مبايعته للنساء، فيقول في سورة الممتحنة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبِيَعْنَكَ عَلَيَّ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْتَصِمْنَ بِمِعْرُوفٍ قَبَائِهِنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لهنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

وقد ذكر القرآن الكريم أن الخروج على الأمر بالمعروف من صفة أهل النفاق، فقال في سورة التوبة:

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ أَسْأَأُ لِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ إِنَّكَ الْمُنْتَفِعِينَ هُمْ أَلْفَسِقُونَ﴾ (٢).

وهذا هو الإمام علي عليه السلام وكرم الله وجهه، يقول: أول ما تغلبون عليه من الجهاد: الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بالستكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فإذا لم يعرف القلب المعروف، ولم ينكر المنكر، نكس فجعل أعلاه أسفله.

وقال أبو الدرداء: لتأمرن بالمعروف، ولتنهن عن المنكر، أو ليلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً، لا يجلّ كبيركم، ولا يرحم صغيركم، ويدعو عليكم خياركم فلا يستجاب لهم، وتنتصرون فلا تنصرون، وتستغفرون فلا يغفر لكم.

هذا وقد شرطوا للأمر بالمعروف شروطاً، منها أن يكون مكلفاً عاقلاً، مؤمناً عادلاً، ورعاً حسن الخلق، وأن يكون عالماً، ليعلم حدود المعروف فيكون بصيراً بمواضعه، وأن يكون أمره بالمعروف ليتناً هيناً، ولذلك جاء في الأثر: «مَنْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ فَلَيْكِنْ أَمْرُهُ بِمَعْرُوفٍ» (٣).

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

(٣) أخلاق القرآن، ج ٣، ص: ٢٠٧-٢١٨.

البحث العاشر:

آدب الكلام والتحدث

أختي المؤمنة:

طيب القول - أو طيب الحديث - فضيلة قرآنية جليلة الشأن! لأن المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا رزقه الله تعالى قلباً طاهر الإحساس، ولساناً طيب القول، فقد أوسع الله لعبده في الفضل والتوفيق. ولذلك يقول بعض الأئمة: طيب الكلام من جليل عمل البر. وأن الكلمة الطيبة تعمل في الإنسان عمل السحر، فتهدئ رَوْعَهُ، وتُريح نَفْسَهُ، وتدخل بالطمأنينة والانشراح على صدره، والتوفيق للنطق بالكلمة الطيبة هبة ربانية عظيمة الشأن، ولذلك يقول الناس: الكلمات هبات. ولا ريب في أن الكلام هو الترجمان والدليل والبرهان على عقل الإنسان ولذلك قيل:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ، وَأِنَّمَا جُعِلَ اللَّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا

ولقد حث القرآن المجيد على طيب الكلام في كثير من آياته، فقال في سورة آل عمران: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْقُرْآنِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْكُفْرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

ويقول في سورة النحل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ بِاللُّغِيِّ هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢).

ويقول في سورة فصلت: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣).

ودعا القرآن الحكيم عبادة الله إلى أن يحرصوا على القول الحسن والكلام

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

الطيب. فقال في سورة الإسراء: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾^(١). معنى ينزغ بينهم أي: يفسد ويهيج الشر بينهم.

أي: قل لعبادي المؤمنين ينطقوا بالكلمة الحُسنَى، وهي كلمة التوحيد والإقرار بالتبوة، وإذا جادلهم الكافر في أمر التوحيد والعقيدة، فليقولوا له: هَذَا اللهُ، يَرْحُمُكَ اللهُ.

وعليهم - من باب أولى - أن يحفظوا حُسنَ الأدبِ وطيبَ القولِ فيما بينهم، ولينتدبروا أنْ فُحشَ الكلام يكون من وسوسة الشيطان اللعين، لأنه للإنسان عدوٌّ مُبين.

ولقد جعل القرآن الكريم طيبَ القولِ أو حُسنَ الكلام جزءاً من الميثاق أو العهد الذي أخذه على بني إسرائيل، فقال عز من قائل في سورة البقرة:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ قَوَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾^(٢).

ويمثل القولُ الأحسن في دعوة إلى خير، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصدق في خير، وتلطف في حوار.

ويقول الحق جل جلاله في سورة الحج: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْرُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾^(٣).

والطيب من القول - كما ذكر هنا أهل التفسير - قد يكون قرآناً مرتلاً، أو تبيحاً مذكراً، أو تذكيراً هادياً، ولننظر كيف عبر الذكر الحكيم هنا بكلمة

(٣) سورة الحج، الآيات: ٢٣، ٢٤.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

﴿وَعُدْوَاهُ﴾ كَأَنَّ التَّنْقِطَ بِالكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ لَوْ أَنَّ جَلِيلَ مِنَ أَلْوَانِ الهِدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ، وَكَانَ تَحْقِيقَ التَّمَسُّكِ بِطَيْبِ الكَلَامِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْإِهْتِدَاءِ وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَى الطَّرِيقِ.

ويقول الله عزَّ شأنه في سورة فاطر: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلْبُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَنْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾^(١).

فانظر كيف صور النص الكريم الكلام الحسن الطيب، كآته قوة قادرة على الصعود والتسامي إلى مواطن القبول الإلهي والرضا القدسي، أو صالحة لكي تبلغ هذا المبلغ الرفيع الكريم.

وفي سورة إبراهيم يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَضَلَّتْ فَاتَتْ وَقَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٥﴾ تُوِّقَ أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿١٧﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾﴾^(٢).

والكلمة الطيبة كما يُعبر بعضُ المفسرين تُشبه الشجرة الطيبة، فهي ثابتة سامقة مشمرة، لا تززعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاول الظغيان، وهي سامقة متعالية على الشرِّ والظلم والظغيان، مشمرة لا ينقطع ثمرها، لأنَّ بذورها تثبت في النفوس المتكاثرة أنا بعد أن.

وإنَّ الكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة، قد تهيج وتعالى وتتشابك، ويُخيل إلى بعض الناس أنهم أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى، ولكنها تظل نافثة هشة، وتظل جذورها في التربة قريبة، حتى لكأنها على وجه الأرض، وما هي إلا فترة ثم تجتث وتُستأصل من فوق الأرض، فلا قرار لها ولا بقاء.

وفي ظل الشجرة الثابتة التي ضربت مثلاً للكلمة الطيبة ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ

(١) سورة فاطر، الآية: ١٥.

(٢) سورة إبراهيم، الآيات: ٢٤-٢٧.

ءَامْتُوا بِأَقْوَالِ الثَّائِبِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿١﴾. وفي ظل الشجرة الخيشية المجتثثة من فوق الأرض ما لها من قرار ولا ثبات ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الْفَاطِلِينَ﴾ (٢) بتجاوزهم حدود الطريق، وبعدهم عن النور الهادي ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٣).

وإذا كان القرآن الكريم قد حضَّ على التمسك بفضيلة طيب الكلام لأنه عنوان النفس الطاهرة، فإنه مع هذا قد حذَّر ممَّا ينحرف باللسان إلى ما لا يليق من الكلام، ولذلك قال الله في القرآن الكريم ضمن صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (٤).

واللغو من الكلام هو ما لا يُعتدُّ به ولا فائدة فيه ولا يليق بالمسلم أن يردده، ويطلق اللغو على الكلام القبيح والقول الخيث.

وكذلك يقول الله في القرآن في سورة النساء: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوِّءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (٥).

وهو بذلك ينقُر من النطق بالكلام السيئ الذي يتضمَّن سباً أو شتماً أو طعناً، اللهم في موطن القضاء أو الدفاع عن الناس أو مقاومة الظالم، إذ ليس معنى طيب القول أن يضعف المسلم، أو يتخاذل أمام اعتداء عليه، أو اغتصاب لحقه، والكلمة الطيبة قد تكون قوية صارمة رادعة في الموطن المناسب لذلك، ومن هنا قال سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» (٦).

وطيب القول يستلزم الصدق فيه، والابتعاد عن الكذب، لأن الكلمة لا تكون طيبة إلا إذا كانت صادقة، ومن هنا قال الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه: «وَلَيْتَا كَمِ وَالْكَذِبِ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ» (٧). ولا يتفق الفُجُورُ مع الفضيلة بحالٍ من الأحوال.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٤٨.

(٦) صحيح الجامع الصغير برقم ١١٠٠.

(٧) حديث صحيح.

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٣.

والقرآن يُشير إلى الثواب العظيم الذي يترتب على الكلمة الناطقة بالحق، المتحلية بالرشد والصدق، فيقول في سورة الأحزاب: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾^(١).

وقد أمر الله في كتابه المسلمين بأن يحرصوا كل الحرص على أدب الحديث وطيب القول وحسن الكلام عند مخاطبة رسول الله ﷺ، فقال القرآن في سورة الحجرات: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾^(٢).

ومراعاة هذه الفضيلة في حق رسول الله عليه الصلاة والسلام ما زالت قائمة، فلا ينبغي أن يرفع المسلم صوته في مسجد الرسول، ولا عند قبره الشريف، وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضوان الله عليه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ وقد ارتفع صوتهما، فجاءهما مغضباً وقال لهما: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال لهما: من أين أنتما؟ قالوا: من أهل الطائف. فقال: لو كتتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً.

ولذلك قرّر العلماء أنه يكره رفع الصوت عند قبر النبي ﷺ، والقرآن الكريم يدعو إلى الاستمساك بفضيلة طيب القول مع الوالدين، لعظيم شأنهما ورفيع مكانتهما، ولذلك يقول في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنُوا إِنَّمَا يَبْلُغُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنِي وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾^(٣).

فحدّز القرآن أن يُسيء الولد الخطاب مع أبويه، ولو بما يكون فيه أقل تبرّم

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١.

(٢) سورة الحجرات، الآيتان: ٢، ٣.

(٣) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

بهما، وهو لفظ «أف» ونهاه عن أن يزرجهما أو يغلظ عليهما بقول أو عمل أو إشارة، وطالبه بأن يقول لهما قولاً طيباً لطيفاً، وأن يدعو لهما، مثل قوله: ﴿رَبِّ أَرْحَمَهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

ويدعو كتاب الله تعالى إلى التمسك بفضيلة طيب القول مع اليتامى. فيخاطب الناس في شأن هؤلاء الضعفاء قائلاً في سورة النساء: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فِيهَا فَاكُفُّوهُمْ وَأَقْبَلُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾^(١)، أي: قولاً طيباً عادلاً موافقاً للدين، يقاوم المفسدة، ويحفظ المصلحة.

ويقول الله في القرآن أيضاً للناس في شأن اليتامى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾^(٢). أي: كلاماً طيباً له فائدته، ولهم فيه مصلحة، ويقول الإمام محمد عبده: المعروف هو ما تعرفه النفوس الكريمة، وتألفه، ويقابله المنكر، وهو ما تُنكره وتمجّه.

فالمعروف هنا يشمل تطيب النفوس بإفهام السفيه أن المال ماله، لا فضل لأحد في الإنفاق منه عليه، ليسهل عليه الحجز، ويشمل النصح والإرشاد وتعليم ما ينبغي أن يعلمه السفيه وما بعده للرشد، فإن السفيه كثيراً ما يكون عارضاً للشخص لا فطرياً، فإذا غولج بالنصح والتأديب حنث حاله، فهذا هو القول المعروف الذي أمر الله أولياء السفهاء به، وزيادة على حفظ أموالهم وتسميرها، والإنفاق عليهم منها.

ويدعو القرآن إلى طيب القول مع السائلين، فيقول الله في سورة البقرة: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾^(٣).

أي: أن الكلام الجميل الذي تقبله النفوس، ولا تنكره القلوب الذي ترد به السائل من غير عطاء، مع ستر حاله وغفران إلحاحه، خير من أن تعطيه شيئاً، ثم تتبعه بالأذى في القول أو العمل.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٣.

(١) سورة النساء، الآية: ٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥.

ويقول الله في القرآن في سورة الإسراء: ﴿وَأِنَّمَا تَرْضَوْنَ عَنْهُمْ آيَاتِنَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ تَرْجُوعًا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ (١).

والخطاب هنا من الله لرسوله، أي: إذا عرضت يا محمد عن إعطاء سائلك لضيق يدك، وعدم وجود شيء عندك، فقل لهم قولاً طيباً ليناً لطيفاً، أي: أحسن القول، وابتسط لهم العذر، واذع لهم بسعة الرزق، وقل لهم مثلاً: إذا جاءني من فضل الله شيء أعطيكم، أو قل لهم: يرزقنا الله وإياكم من فضله.

ويدعو القرآن إلى طيب القول حتى مع المخالف في الدين والاعتقاد، فيقول في سورة العنكبوت: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَإِنَّا لَنَكْفُرُ بِمَا كُفَرْنَا وَمِنَ الْكُفْرِ لَمُتْلِفُونَ﴾ (٢).

بل وأكثر من هذا، إن القرآن يدعو إلى طيب القول مع طاغي الطغاة، مع فرعون، فالله تعالى يقول لموسى وهارون في سورة طه: ﴿أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ غَفَى﴾ (٣) ﴿فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٣).

ثم تأتي السنة النبوية المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام: لقد كان الرسول مثلاً أعلى في طيب القول ولين الكلام وسهولة المعاملة، حتى وصفه الله تعالى بقوله: ﴿فِيمَا رَحِمْتَنِي بَيْنَ يَدَيْكَ لَهْمٌ وَلَوْ كُنْتَ قَطًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّفَضْنَا بَيْنَ سَوَابِكِ﴾ (٤).

وحدث الرسول كثيراً على فضيلة طيب القول فقال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيصْمُتْ» (٥).

وجاءت هذه الطائفة الكريمة من الأحاديث:

«كَفَّ لِسَانَكَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ» (٦).

- | | |
|-------------------------------|--------------------------------|
| (١) سورة الإسراء، الآية: ٢٨. | (٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩. |
| (٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦. | (٥) حديث صحيح. |
| (٣) سورة طه، الآيتان: ٤٣-٤٤. | (٦) حديث صحيح. |

«أَفْشِيَ السَّلَامَ، وَأَطْبِ الْكَلَامَ»^(١).

«لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ، حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»^(٢).

«اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»^(٣).
«الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ»^(٤).

«أَهْلُ النَّارِ كُلُّ جَمْظَرِي جَوَازِظٍ مُسْتَكْبِرٍ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الضَّعْفَاءُ الْمَغْلُوبُونَ»^(٥).

«الْمَسْلُومُ مَنْ سَلِمَ الْمَسْلُومُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدَيْهِ»^(٦).

وكما حثَّ الرسول على طيب القول بهذه الصورة الرائعة حذر من الكذب والاختلاق، وقال فيما قال: «بئس مطية الرجل زعموا» لأن الزعم ليس قائماً على الصدق أو اليقين.

أما بعد، فليت كل مسلم يعود لسانه طيب المقال وحسن الكلام، وأن يتذكر على الدوام قول خالقه جل جلاله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ﴾^(٧).



(١) حديث صحيح.

(٢) مسند أحمد، ج ٣ / ١٩٨، ومجمع الزوائد، ج ١ / ٥٣، وسنده حسن.

(٣) حديث صحيح.

(٤) حديث صحيح.

(٥) صحيح الجامع ٢٥٥٩.

(٦) حديث صحيح.

(٧) سورة ق، الآية: ١٨.

البحث الحادي عشر:

آداب التدبير والتفكير

أختي المؤمنة:

التدبير هو النظر في أدبار الأمور، أي: أواخرها ونتائجها وعواقبها؛ وتدبير الكلام هو النظر والتفكير في غاياته ومقاصده التي يرمي إليها، وعاقبة العامل به والمخالف له، وقد استعملت كلمة «التدبير» في كل تأمل، سواء أكان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه، أم في سوابقه وأسبابه، أم في لواحقه وأعقبه. وتدبير فلان الأمر ودبره تدبيراً: نظر في عواقبه وأدباره ليقع على الوجه المحمود، ولذلك يقال: التدبير هو النظر في عواقب الأمور، أو التفكير في دبر الأمور.

وقد وردت مادة «التدبير» في طائفة من آيات القرآن الكريم، فجاء في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِ إِذِيهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(١). وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي: يقضي ويقدر على حسب ما تقتضيه الحكمة والكمال. وجاء في «تفسير المنار» عن هذه الآية قوله: التدبير في أصل اللغة: التوفيق بين أوائل الأمور ومبَاديها، وأدبارها وعواقبها، بحيث تكون المبادي مؤدية إلى ما يريد من غاياتها، كما أن تدبير الأمر أو القول هو التفكير في دبره، وهو ما وراءه وما يراد منه وينتهي إليه.

وجاء في سورة الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفْعِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُلَاحِظُونَ﴾^(٢). وجاء في سورة السجدة: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾^(٣). وجاء في سورة

(١) سورة يونس، الآية: ٣.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٥.

النازعات: ﴿قَالَمْ يَدْرَأَ أَتْرَاكُ﴾^(١) والمراد بالمديرات أمراً هنا الملائكة الموكله بتدبير الأمور، أو الملائكة المديرات أمر الدنيا بإذن الله تعالى، ويرى الإمام محمد عبده أنها الكواكب التي انفردت بتدبير بعض الأمور الكونية في عالمنا الأرضي، وليس التدبير هنا إلا ظهور الأثر، ونسبة التدبير إليها لأنها أسباب ما نستقيده منها، والمدير الحكيم هو الله جل شأنه.

وقد وردت مادة التدبير في آيات القرآن المجيد، ففي سورة النساء: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٢). أي: ألا يتأملون معانيه ويتبصرون ما فيه؟ أفلا يتدبرون كتاب الله تعالى، فيعلموا أنه كلام الله، لا تساق معانيه، واتلاف أحكامه، وتأيد بعضه بعضاً بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق؛ لأن القرآن لا يكذب بعضه بعضاً ولا ينقض بعضه بعضاً، وما يجعله بعض الناس من أمره هو من قلة علمهم وتقصير عقولهم.

وجاء في سورة محمد: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٣) أي: أفلا يلاحظون معاني القرآن ودقائقه ورقائقه، وما فيه من المواعظ والزواجر، حتى لا يفعلوا فيما وقعوا فيه من الموبقات، أم أن قلوبهم قد قست أو استغفلت، فهي لا يصل إليها الذكر، ولا ينكشف لها الأمر، فكانها مغلقة، لا تقبل التدبير ولا الاعتبار؟ ويصور ابن جرير الطبري معنى الآية بما خلاصته: أفلا يتدبر هؤلاء الضالون مواعظ الله تعالى التي يعظم بها في آيات القرآن الذي أنزله على نبيه ﷺ، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله، فيعلموا خطأ ما هم عليه مقيمون، أم أقلل الله على قلوبهم، فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبير، إنهم لو فعلوا لوجدوا في القرآن الكريم زاجراً عن معصية الله، وداعياً إلى طاعته.

وهذا معناه أن التدبير إذا صار للإنسان خلقاً يتحلّى به، وفضيلة يتزوّج بجمالها، فإن هذا التدبير يعصم صاحبه من السوء، ويقرّنه بالخير؛ وهذا التدبير

(١) سورة النازعات، الآية: ٥.

(٢) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٢.

إنما يُثبِره في الإنسان قلبٌ حيٌّ يقظٌ، وعقلٌ متفتحٌ مستجيبٌ، وإحساسٌ دقيقٌ مرهفٌ، وبهذا الاستعداد يتمكن الإنسان أن يحسن التدبر الدنيوي والتدبر الديني، وهما اللذان يُشير إليهما خالد بن معدان في قوله: ما مِنْ آدمي إلا وله أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه، وما يصلحه من معيشته، وعينان في قلبه لدينه، وما وعدَّ الله من الغيب، فإذا أرادَ الله بعبده خيراً أبصرت عيناه اللتان في قلبه، وإذا أرادَ الله به غيرَ ذلك طمسَ عليهما.

وجاء في سورة المؤمنون قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾^(١). وكلمة يدبّروا في الآية أصلها يتدبروا أي: أفلم يتأمل هؤلاء المشركون كلام الله تعالى وتزويله، فيعلموا ما فيه من العبر، ويعرفوا حُجَجَ الله التي احتج بها عليهم، فيكون ذلك داعياً إلى التوبة والاهتداء.

ويقول الله في القرآن في سورة ص: ﴿كَتَبَ أَرْزَلَهُ إِلَيْكَ مِكْرًا كِيدًا لِدُبِّرُوا أَيْتِيهِمْ وَلَسْتَ تَكْفُرُ أَزَلُوا الْأَلْتَبِ﴾^(٢) أي: ليتدبر أصحاب العقول آيات هذا الكتاب الإلهي المجيد، وما شرعه الله فيه من شرائع، فيعملوا به فيهدوا ويسعدوا^(٣).

أختي المؤمنة:

وآداب التفكير:

التفكيرُ كلمةٌ فيها معنى النظر والتفهم، وقد عرف الراغب الأصفهاني التفكير بأنه جولان قوة الفكر بحسب نظر العقل، ويستعمل الفكر في المعاني، وهو فحص الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها، ولذلك تقول اللغة إن الفكر هو إعمال النظر في الشيء، ولكن التفكير بالمعنى الأخلاقي الإسلامي القرآني هو أن ينظر الإنسان في الشيء على وجه العبرة والعظة، لتقوية جوانب الخير والصلاح، ومقاومة دواعي الشر والفساد.

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٦٨.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٣) أخلاق القرآن، ج ١، ص ٢٢٠-٢٢٤.

ولذلك نجد المفسرين يتعرضون لمعنى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَلِكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(١) فيقولون في معنى ﴿لَمَلِكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾: أي: لكي تتفكروا في أمر الدنيا وأمر الآخرة، فتجنبوا ما يجلب عليكم البلاء والشقاء فيهما، وتعتصموا بما هو لائق بالمؤمنين من الأخلاق والمكارم، وتستنبطوا الأحكام، وتفهموا المصالح والمنافع المنوطة بها، فتأخذوا بالأصلح، وتبعدوا عما يضركم ولا ينفعكم، أو يضركم أكثر مما ينفعكم.

ولقد جاء ذكر التفكير في القرآن الكريم عدة مرات، فقال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ مُّشْفَاءٌ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبينُ اللهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَلِكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢).

وقال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّمَا اتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِنَّكَ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣).

وقال في سورة الرعد: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِجْمًا وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رِجْمَيْنِ اثْنَيْنِ يُغِثُ النَّبْتُ أَشْرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٤).

والجزء الأخير من هذه الآية الكريمة ورد مثله في سورة الروم، والزمر، والجمانية، كما ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في سورة النحل مرتين^(٥).

كما جاء في سورة النحل أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩، والآية: ٢٦٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٣.

(٥) سورة النحل، الآية: ١١، والآية: ٦٩.

لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾. وجاء في سورة يونس: ﴿كَذَلِكَ نُنْزِلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾. وفي سورة الأعراف: ﴿فَأَنْصَبِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾. وفي سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَانِقًا
مُتَّصِدًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤﴾.

ولو تتبعنا المواضع التي جاء فيها ذكر التفكير في القرآن الكريم، لوجدنا أن
هذا الذكر يأتي غالباً بعد الحديث عن أمر أو مشهد يُثير في النفس معنى من
معاني الإعجاب بالخير والفضيلة والميل إليهما، أو معنى من معاني النفور من
الشر والرذيلة والضيق بهما، أو هكذا ينبغي أن يكون لدى الإنسان القويم، وهذا
يؤكد لنا المعنى الأخلاقي القرآني لفضيلة التفكير، وهو النظر على وجه الاتعاط
والاعتبار، فالإنسان يتفكر في أمر المعاصي وأمر الطاعات، أو يتفكر في
الصفات المهلكة والصفات المنجية، فبتبين حينئذ - أو هكذا ينبغي له أن يتبين
- أهو متلبس بمعصية فينتهي عنها، أم هو سائر في طاعة فيزداد منها؟.

وكذلك يتفكر الإنسان في الفرائض والواجبات: أهو يؤديها أم يقصر فيها؟
ويتفكر في الصفات المهلكة: أهو متلطيخ بشيء منها؟ ويتفكر في الصفات
الجميلة: ما الذي يحتاج إليه منها؟ وهكذا.

وما أوسع المجال للتفكير عند تلاوة آيات القرآن، فإن وراء كل آية من
الأسرار والإشارات والتفحات الشيء الكثير، واللائق بالمؤمن المتفكر أن يردد
الآية التي يريد التفكير فيها - كما ينصح الغزالي - ويعيدها مرات ومرات،
بتمتّن وتدبّر، فإن تحت كل كلمة أسراراً واسعة، وقراءة آية بتدبر وتفكر وفهم
خيرٌ من كثير القراءة بلا وعي^(٥).

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

(٤) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٥) أخلاق القرآن، ج ١، ص: ٢٢٦-٢٣٢.

البحث الثاني عشر:

أدب الاعتبار والاستبصار

أخني المومنة:

وفي الاعتبار معنى الإحساس بدلالات الآيات، سواء أكانت حثية أم معنوية، وفيه معنى التأمل والتفكير، مما يُرَبِّي في نفس المعبر فضيلة التأثر بالعظة، والاستجابة للنصيحة، والتقبل للتوجيه، والإفادة من سابق التجارب، أو قائم الدلائل والمشاهد، وقد أمر القرآن الكريم بالاعتبار، فقال الله في سورة الحشر: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾^(١) وربط بين العبرة ومواطنها المتعلقة بما خلق الله وأبدع في كونه من أشياء دالة على قدرته داعية إلى خشية، فتراه يذكر في سورة النحل: ﴿وَإِنَّ لَكَ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنَبِّحَ بِهَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ﴾ ما في الكرش من فضلات الطعام ﴿وَرَدِمْنَا بِأَنْبُسًا سَابِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾^(٢). ويقول الله في سورة المؤمنون: ﴿وَإِنَّ لَكَ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنَبِّحَ بِهَا فِي بُطُونِهَا وَلِكُلِّ فِيهَا مَنبُغٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾^(٣). ويقول في سورة النور: ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾^(٤).

ولقد أشار القرآن الكريم إلى غزوة بدر في سورة آل عمران: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتِيِنَ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجُوا كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مَشَابِهَهُمْ رَأَى الْمُؤْمِنِينَ وَاللَّهُ يُوَفِّيهِمْ بِمَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾^(٥).

وجاء تفسير المنار فتحدث عن معنى الآية، ثم أشار إلى فضيلة الاعتبار التي ينه بها كتاب الله تعالى ويوجه إليها، فقال فيما قال:

وجملة القول أن الآية ترشد إلى الاعتبار بمثل الواقعة المشار إليها - يعني:

- | | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| (١) سورة الحشر، الآية: ٢. | (٤) سورة النور، الآية: ٤٤. |
| (٢) سورة النحل، الآية: ٦٦. | (٥) سورة آل عمران، الآية: ١٣. |
| (٣) سورة المؤمنون، الآية: ٢١. | |

حقيقتها وصفاتها، وأما الأغرار الغافلون، والظالمون المعاندون، فلا يمرنون عقولهم على الاستقلال في النظر، والاعتبار بما جرى على الأفراد والأمم، فلا يفيدهم النصيح والتذكير، ولا سوء العاقبة والمصير^(١).



البحث الثالث عشر:

أدب الفرح والسرور بفضل الله سبحانه

أختي المؤمنة:

نفهم من آيات الله تعالى أن الفرح في القرآن نوعان: مطلق ومقيّد، فالمطلق يأتي في مواطن الظم له والنهي عنه والتحذير منه، كقوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾^(٢).

والمقيّد إذا قيد بالدنيا فهو أيضاً مذموم، لأنه يجعل صاحبه ينسى فضل الله ومنته كقوله في سورة الأنعام: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾^(٣).

أي: يائسون أو مكتئبون. وإذا كان مقيداً بفضل الله ورحمته فهو محمود مطلوب كقوله في سورة يونس: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ قَدْ جَاءَكُمْ قَلْبَكُمْ لِيِخْرَبُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٤).

وهذا النوع من الفرح بفضل الله هو الفضيلة الأخلاقية القرآنية، التي تجعل صاحبها يتسامى عن خصائص الألوان من الفرح، ويأخذ نفسه بالإقبال على الله، والفرح بما يأتيه عن ربه من فضل وخير ورحمة، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ قَدْ جَاءَكُمْ قَلْبَكُمْ لِيِخْرَبُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

(١) أخلاق القرآن، ج ١ / ١٣١-١٣٢. (٢) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٨. (٤) سورة يونس، الآية: ٧٦.

أي: بهذا الذي جاءهم من الله تعالى من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به، وهو أفضل مما يجمعون من حطام الدنيا، وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة، ويؤيد هذا الفهم أن الآية التي سبقت هذه الآية تقول: ﴿يَأْتِيَا النَّاسَ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

ويروى أنه حينما قدم خراج العراق إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جعل عمر يعد الإبل، فإذا هي كثيرة كثيرة، فجعل يردد قوله: الحمد لله تعالى. فقال تابع عمر: هذا والله من فضل الله ورحمته، فرد عليه عمر قائلاً: هذا مما يجمعون، لأن الله تعالى يقول: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٢).

وقد تعرض ابن القيم لهذه الآية فذكر أن الله تعالى قد أمر عباده بالفرح بفضله ورحمته، وذلك تبع للفرح والسرور بصاحب الفضل والرحمة سبحانه، فإن من فرح بما يصل إليه من جواد كريم محسن بر، يكون فرحه بمن أوصل إليه ذلك أولى وأحرى، وفضل الله - كما قيل - هو الإسلام، ورحمته هي القرآن، وفضل الإسلام فضل عام على جميع أتباعه، ورحمته بتعليم قرآنه لبعضهم دون بعض فضل خاص، فالله جعلهم مسلمين بفضله، وأنزل إليهم كتابه برحمته، كما قال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَرْجُونَ أَنْ يُلْقَى إِلَيْكُمُ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (٣).

ثم قال ابن القيم: وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله ورحمته عقيب قوله: ﴿يَأْتِيَا النَّاسَ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته التي تتضمن الموعظة، وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة.

فأخبر سبحانه أن ما أتى عبده من الموعظة - التي هي الأمر والنهي - المقرون بالترغيب والترهيب، وشفاء الصدور المتضمن لعافيتها من داء الجهل والظلمة والغنى والسفه، وهو - أي: الجهل - ألم ^{سدد} لها من أدواء البدن،

(٣) سورة القصص، الآية: ٨٦.

(١) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥٨.

ولكنها لما ألفت هذه الأدوية لم تحس بألمها، وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا، فهناك يحضرها كل مؤلم محزن، وما أتاها من ربها هو الهدى الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين، وطمانينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به، والرحمة التي تجلب لها كل خير ولذة، وتدفع عنها كل شر مؤلم.

فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها، أي: هذا هو الذي ينبغي أن يفرح به، ومن فرح به فقد فرح بأجل مفروح به، لا ما يجمع أهل الدنيا منها، فإنه ليس بموضع للفرح، لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة، وهو طيف خيال زار الصب في المنام، ثم انقضى المنام، وولى الطيف، وأعقب مزاره الهجران.

ويرى الإمام أن فضل الله هو الإسلام والإيمان، وأن رحمته هي العلم والقرآن، والله يحب من عبده أن يفرح بذلك ويسر به، بل يحب من عبده أن يفرح بالحسنة إذا عملها وأن يسر بها، وهو في الحقيقة فرح بفضل الله، حيث وفقه الله لها، وأعانها عليها ويسرها له، ففي الحقيقة إنما يفرح العبد بفضل الله ورحمته.

ومن أعظم مقامات الإيمان الفرح بالله والسرور به، فيفرح به إذ هو عبده ومحبه، ويفرح به سبحانه رباً وإلهاً، ومُنْعِماً ومُرْتَبِئاً.

ويقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَانُوا بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ (١).

فالله تعالى يخبر عن الشهداء بأنهم - وإن قتلوا في هذه الدار - فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار.

وقد كان أحدهم يجاهد في سبيل الله، ليبلغ دعوة الله، فيضرب بالرمح في

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩، ١٧٠.

جنبه حتى يخرج من الشق الآخر فيفرح بفضل الله عليه ويقول: الله أكبر فزت ورب الكعبة. وفي السنة أن الشهداء عند ربهم حينما وجدوا طيب ماكلهم ومشربهم وحسن مقبلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا يئكلوا عن الحرب. فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى الآيات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوتًا﴾ الآية. وهم فرحون بما هم فيه من الفضل والنعمة والغبطة، ويستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله، لأنهم يقدمون عليهم، ولا يخافون مما أمامهم، ولا يحزنون على ما تركوا وراءهم.

ويقول الله عز من قائل في سورة الرعد: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ بِرَحْمَةٍ مِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْآخِرَاتِ مَن يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُنزِلَتْ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ إِلَهًا أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾^(١).

أي: إن الذين آتيناهم الكتاب، وهم قائلون بمقتضاه بلا تغيير، يفرحون بما أنزل إليك من القرآن المجيد، لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، فالقرآن هو فضل الله الأكبر الذي يستحق أن يفرح به المؤمن.

ويقول الحق جلّ جلاله في أول سورة الروم: ﴿الَّذِي خَلَقَ الرُّومَ﴾^(١) فِي آدَانِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَاقِلُونَ^(٢) فِي يَضْعِ سِينَتِ اللَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْسَحُ الْمُؤْمِنُونَ^(٣) يَنْصِرِ اللَّهُ بَنْصُرٍ مِّنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ^(٤)﴾^(٢).

ذكر أهل التفسير أن المشركين كانوا يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، وقد تحقق ما ذكرته الآيات، وهو انتصار الروم بعد هزيمتهم، ففرح المؤمنون حينئذ بتحقيق وعد الله تعالى، لأن النصر لا يكون إلا من عند الله، وكان للمسلمين النصر يوم بدر.

(٢) سورة الروم، الآيات: ١-٥.

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٦.

هذا وينبغي للمؤمن حين يفرح بفضل الله ورحمته أن يحذر مكر الله سبحانه، لأنَّ الفرح قد يجعل صاحبه ينسى المنعم وهو الله، فيكون ذلك سبباً لسلب النعمة، ولو بلغ العبد من الطاعة ما بلغ لا ينبغي له أن يفارقه الحذر، فالفرح متى كان بالله، وبما منَّ الله به، مقارناً للخوف والحذر، لم يضر صاحبه، ومتى خلا من الحذر ضر وأفسد.

وما هو ذا كتاب الله جل جلاله يشير إلى ألوان من الفرح المنحرف الضار، فيقول في سورة الأنعام: ﴿قُلْنَا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾^(١).

أي: أن أهل الشرك والعناد والمعصية نسوا أوامر الله فأعرضوا عنها، وجعلوها وراء ظهورهم، ففتح الله عليهم أبواب الاستدراج والإملاء والإمهال، فأعطاهم من متاع الحياة ما يريدون، حتى إذا فرحوا بالأموال والشهوات أخذهم الله على غفلة، فإذا هم يائسون محرومون من كل خير. قال الحسن البصري: مَنْ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرَ أَنَّهُ يَمْكُرُ بِهِ فَلَا رَأْيَ لَهُ، وَمَنْ قَتَرَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرَ أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فَلَا رَأْيَ لَهُ، ثم قرأ الآية السابقة.

ويقول الله تعالى في سورة الرعد: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾^(٢).

قاله سبحانه هو الذي يوسِّعُ الرزق على من يشاء، ويُقتِرُه على من يشاء بعلم وحكمة، وليس متاع الدنيا هو كل شيء، وليس هو الشيء المهم الذي يفرح به عباد الله، ولقد فرح الكفار بما أُوتوا من متاع الحياة الدنيا على سبيل الاستدراج والإمهال، وهذا فرح في غير موضعه، لأن الحياة الدنيا بالنسبة إلى الدار الآخرة قليلة حقيرة، والحديث يقول: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم، فليُنظَرُ بِمَ تَرَجِعُ».

وجاء في سورة القصص: ﴿إِنَّ قَدْرُونَ كَانَتْ مِنْ قَوْرِ مُوسَىٰ فَبَقِيَ عَلَيْهِمْ رَبُّنَا

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٦.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

مِنَ الْكُوزِ مَا إِنَّ مَفَاعِيَهُ لَتَنُوءُ بِالْمُصْبَكِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿١﴾ .

إن قارون طغى على قومه وبغى بسبب كثرة المال: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُوفٌ ﴿٦﴾ أَن زَاهُ أَسْتَفْتَى ﴿٧﴾﴾ (٢) وكانت أمواله كثيرة، ترهق في حملها مجموعة من الناس الأقوياء لكثرتها، فلما رأى العقلاء من قومه ما بدا من طغيانه وبغيه قالوا له واعظين ناصحين: لا تفرح بما أنت فيه من مال فرح البطر الأشمر، لأن الله لا يحب هؤلاء الفرحين الأشمرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما آتاهم وأعطاهم.

وجاء في سورة غافر: ﴿فَلَيْكُم بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَيَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ (٣).

أي: تقول الملائكة يوم القيامة للمجرمين الكافرين من أهل النار: هذا العقاب الذي تُلَاقُونَهُ، إنما هو جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق، لأنه فرح بغير فضل الله ونعمته.

وجاء في سورة المؤمنون: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٤).

أي: يفرحون بما هم فيه من الضلال، وما أكثر أودية الضلال، كل منهم في واد يهيؤون، لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، وهم في الضلال غارقون، ولذلك تهددهم الله بقوله عقب ذلك: ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَثَرِهِمْ حَتَّىٰ يَجِيئَ ٱلْبَحْرُونَ أَنفَآ يُؤَدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّآلٍ وَبَيْنَ ٱلْأَعْيُنِ ٱلْحَقِيقَةِ ﴿٣٥﴾﴾ (٥).

إلا أن الفرخ بكل متاع زائل فرح ناقص مبتور، وقد ينقلب وبالاً على صاحبه في العاجل أو الآجل، وأما الفرخ بالله وفضله ورحمته فهو الفرخ

(١) سورة القصص، الآية: ٧٦.

(٢) سورة العلق، الآيتان: ٦-٧.

(٣) سورة غافر، الآية: ٧٥.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٥٣.

(٥) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٤-٥٦.

الحقيقي الباقي! قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(١).

اللهم هبنا الفرح بك، واضرفنا عن الفرح بسواك، فنعم الهدى هُداك^(٢).



البحث الرابع عشر:

آداب الزينة والتزين

أختي المؤمنة:

الإسلام دين لا يُحارب التزين أو التمتع، بل يعد ذلك شيئاً من فطرة الإنسان، أو يعدّه غريزة مفيدة مشمرة، إذا استقام صاحبها وأخذ منه بالحظ المعقول البصير صار ذلك خلقاً يحمد ولا يعاب، فهو إلى حمى الفضائل أقرب أكثر منه اقتراباً من العادات.

والزينة الحقيقية التي يتمتع بها المتخلق البصير هي ما لا يُشِينُ الإنسان في شيء من أحواله لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأما ما يزينه في شيء من أحواله دون جانب آخر من أحواله فهو زين من وجه، وشين من وجه آخر، والزينة قد تكون زينة نفسية كالعلم والاعتقاد الحسن، وزينة بدنية كالقوة وطول القامة، وزينة خارجية كالجمال والجاه.

ولقد تحدّث تفسير المنار عن غريزة حب الزينة وحب الطيبات فقال: لقد كانت غريزة حب الزينة، وغريزة حب الطيبات من الرزق، سبباً لتوسع البشر في أعمال الفلاحة والزراعة، وما يرقبها من فنون الصناعة، وسائر وسائل العمران، وإظهار عجائب عالم الله وحكمته وقدرته في العالم ورحمته وإحسانه بالخلق.

(١) سورة يونس، الآية: ٥٨.

(٢) أخلاق القرآن، ج ٤، ص: ٧٦-٨٨.

ولو وقف الإنسان عند ما تثبت له الأرض من الغذاء ليحفظ حياة أفراده الشخصية وبقاء حياته النوعية كسائر أنواع الحيوان، لما وجد شيء من هذه العلوم والفنون والأعمال. وهل كان ما ذكر في بيان خلقه الأول من أكل آدم وحواء من الشجرة التي نُهيّا عنها إلا بدافع غريزة كشف المجهول، والحرص على الوصول إلى الممنوع؟ وهل كان ما ذكر من حرمانهما من الراحة بتنعيم الجنة التي يعيشان فيها رغداً بغير عمل، إلا لبيان سُنة الله في جعل هذا النوع عالماً صناعياً تدفعه الحاجة إلى العمل ويدفعه العمل إلى العلم، ويدفعه حب الراحة إلى التعب، ويشمر له التعب الراحة؟.

والله تبارك وتعالى يُحدّثنا عن الزينة ويحببنا فيها عند وجودنا في المواطن المناسبة لها، ويحثنا على التمتع بالطيبات، ويُقرّر أنها من صفات المؤمنين، ويدعو بني آدم جميعاً إلى هذا التزيّن والتمتع فيقول في سورة الأعراف:

﴿يٰٓبَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَشَرِبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذٰلِكَ نَفَصِّلُ الْآيٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (١).

فهو ﷺ يحببنا في التزيّن بالثياب الحسنة والمظهر الجميل، عند دخول المساجد للصلوات، وفي صلاة الجماعة والجمعة والعيدين، ويقول رشيد رضا في ذلك: التجمل بزينة اللباس اللائق عند الصلاة - ولا سيما صلاة الجمعة والجماعة وفي العيدين - سُنة لا واجب. ولكن إطلاق الأمر يدل على وجوب الزينة للعبادة عند كل مسجد، بحسب عرف الناس في تزيّنهم المعتدل في المجامع والمحافل، ليكون المؤمن عند عبادة الله تعالى مع عباده المؤمنين في أجمل حالة لائقة به لا تكلف فيها ولا إسراف، فمن قدر بلا تكلف على عمامة وإزار ورداء، أو ما في معناها من قلنسوة وجُبّة وقبّاء، لا يكون ممتثلاً للأمر بالزينة إذا اختصر على إزار يستر العورة فقط للرجل، وما عدا الوجه والكفين

(١) سورة الأعراف، الآيات: ٣١، ٣٢.

للمرأة، وإن صححت صلاته فإنَّ المقام ليس مقام بيان شروط صحة الصلاة، بل هو أوسع من ذلك.

لقد شرع الإسلام كما رأينا التزين للعبيدين ولبيوم الجمعة ولصلاة الجماعة، وفي التزين معنى التمتع المباح بالأشياء الطيبة، نعم يكره التزين للمرأة المتوفى عنها زوجها وهي في عدتها، ويكره لها التبخر والتباهي بالتزين.

وفي سورة المائدة يشير الله تبارك وتعالى إلى لون من ألوان التمتع حين يقول: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ وَمَعَامِلُ مَتَلَعًا لَّكُمْ وَالسَّيَّارَةُ﴾^(١) أي: متعمكم الله به متاعاً حسناً، أو جعله لأجل تمتعكم به.

وفي سورة هود يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَسْتَفْرُوا رَبَّكُمْ فَمَا تُوْبُوا إِلَيْهِ يُبْنِعْكُمْ مَتَلَعًا حَسَنًا إِلَيْكُمْ تَسْمَىٰ رُبُّوتِ كُلِّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ﴾^(٢).

أي: أن تستفروا ربكم وتووبوا إليه بمتعمكم بكل نافع في المعيشة متاعاً حسناً مرضياً ممتداً إلى أجلٍ مسمى، وهو العمر المقدر لكم في علمه.

ويقول الله في القرآن الكريم في سورة آل عمران: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ﴾^(٣).

وليس المراد ذم هذه الأشياء أو التفسير منها أو النهي عنها، وإنما المراد - والله أعلم - هو التحذير من أن تجعل غاية الحياة فينشغل الإنسان بها انشغالاً يصرفه عن واجباته الأخرى نحو الله والناس.

جاء في تفسير المنار: الكلام في هذه الشهوات بيان لما فطر عليه الناس من حبها وزينته في نفوسهم، وتمهيد لتذكيرهم بما هو خير منها، لا لبيان قبورها في نفسها كما يتوهم الجاهل، فإن الله تعالى ما فطر الناس على شيء قبيح، بل خلقهم في أحسن تقويم، ولا جعل دينه مخالفاً لفطرته، بل موافقاً لها كما قال:

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٦.

(٢) سورة هود، الآية: ٣.

﴿فَأَنذِرْ وَجْهَكَ لِلذِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

وكيف يكون حبّ النساء في أصل الفطرة مذموماً وهو وسيلة إتمام حكمته تعالى في بقاء النوع إلى الأجل المُستَمي؟ وهو من آياته تعالى الدالّة على حكمته ورحمته، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِنَا أَنْ خَلَقْنَا لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢). وكان ﷺ يجهنّ.

وكيف يكون حبّ المال مذموماً لذاتِهِ، والله تعالى قد جعل بذل المال من آيات الإيمان؟ وهو تعالى ينهى عن الإسراف والتبذير في إنفاقه، كما ينهى عن البخل به، وقد امتنّ على نبيِّه بآته وجدّه عائلاً أو فقيراً فأغناه، وجعل المال قواماً للأمم ومعزراً للذنين، ووسيلة لإقامة ركنين من أركانه ومن أعظم أسباب التقرب إليه تعالى.

وقد قال ﷺ: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»^(٣). ولا أراني في حاجة إلى الكلام في حبّ البنين والخييل والأنعام والحرث، فإن الشبهة فيه للغالين في الزهد أضعف.

فعلى المؤمن المتقي أن لا يُفتن بهذه الشهوات، ويجعلها أكبر همه، والشاغل له عن آخرته، فإذا اتقى ذلك، واستمتع بها بالقصد والاعتدال، والوقوف عند حدود الله تعالى فهو السعيد في الدارين: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٤) (٥).

والحمد لله رب العالمين



(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

(٥) أخلاق القرآن، ج ٦، ص ٦٦-٧٢.

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٣) رواه مسلم في صحيحه.

الخاتمة

أختي المؤمنة:

هذا ما يسّر الله تبارك وتعالى لي جمعه وتأليفه من هذه الأبحاث الهامة؛ لكل مسلمة ومؤمنة من واجباتها في عقيدتها وعبادتها ومعاملاتها وأخلاقها وآدابها من آيات القرآن الحكيم ومن أحاديث رسول الله الكريم ﷺ؛ لتكون نبزاً سأسألك في حياتك، وزاداً مباركاً في مسيرك على المنهج الصحيح الذي سارث عليه صحابيات رسول الله ﷺ، والتابعيات والصالحات من هذه الأمة على مدى تاريخها، فأدرسي أختي المؤمنة أبحاث هذه الواجبات مرة تلو المرة لتكون ماثلة في تفكيرك واهتمامك وعنايتك، فإنها خير معين لك في دينك ودنياك، وفقنا الله تبارك وتعالى وإياك وجميع المساحين والصلحات لطاعته ولحسن عبادته، فإنه خير مسؤول وأكرم مجيب، وهو حَسْبُنَا ونعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا، وإليك المصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

